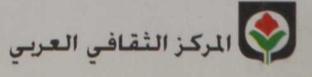
حسن الصفّار

شخصية المرأة

بين رؤية الإسلام وواقع المسلمين



حسن الصفّار

شخصية المرأة

الطبعة الثانية: 2004

الكتاب

شخصية المرأة

تأليف

حسن الصفّار

الطبعة

الأولى، 2003

عدد الصفحات: 168

القياس: 14.5 × 21.5

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 ـ 352826

فاكس: 343701 ـ 1 961+



«الحمد لله رب العالمين وصلى الله على
محمد وآله الطاهرين وصحبه الطيبين»

المحتويات

المقدمة

عرفت المرأة أماً عطوفاً، أغدقتْ عليَّ حبها وحنانها، حتى آخر لحظة من حياتها، التي قضتها في كدح وعناء من أجل إسعاد أبنائها وخدمة زوجها، وتحملّت -كبقية الأمهات- صعوبات الحياة، وقسوة الظروف، في تلك السنوات الماضية، وخاصةً لدى الطبقات الفقيرة والمحدودة الدخل.

ثم عرفت المرأة زوجة صالحة وهبتني كل حياتها ووجودها،ووقفت إلى جانبي في ظروف بالغة الصعوبة، متحملةً عناء الهجرة، وقساوة الغربة، ومواجهة المشاكل والأخطار.

وأنعم الله علي بخمس بنات - إلى جانب ولد واحد- ملأن حياتي بهجةً وسروراً، بوداعتهن، وأدبهن الجمّ ومثابرتهن على الدراسة والتعليم.

فارتسمت في ذهني، وتجذرت في أعماقي، مشاعر

الاحترام والإكبار، لإنسانية المرأة وعطائها الوافر الكبير.

وقرأت المرأة في النصوص الدينية فرأيتها أحق موجود بالاحترام والتقدير، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟

قال ﷺ: «أمك».

قال: ثم من؟

قال ﷺ: «ثم أمك».

قال: ثم من؟

قال ﷺ: «ثم أمك».

قال: ثم من؟

قال ﷺ: «ثم أبوك».(1)

وتقول النصوص الدينية: إن الجنة على عظمتها تحت قدمي المرأة- الأم، كما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الجنة تحت أقدام الأمهات»(2)

وعن رسول الله ﷺ: «خير أولادكم البنات».(3)

---

(1) القشيري: النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، حديث رقم 2548.

(2) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم 45439.

(3) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار ج 101ص 91.

وعنه ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال».[1]

ونظرت في واقع مجتمعاتنا فهالني ما تعج به مساحة واسعة منها، من ظواهر إجحاف وتجاهل لدور المرأة وحقوقها، ومن قمع وكبت لطاقاتها وقدراتها.

وأسوأ ما في الأمر أن يمارس ذلك الإجحاف والظلم تجاه المرأة باسم الدين، حيث تُهمل آيات محكمات من القرآن، ونصوص واضحات من السنة، تؤكد على مكانة المرأة، وشراكتها مع الرجل في الإنسانية، ومستوى العبودية لله تعالى، وفي عمران الأرض واستثمار خيرات الطبيعة، وإقامة الحق والعدل، وفي استحقاق ثواب الله ودخول جنته.

يُهمل كل ذلك ليُؤخذ بروايات ونصوص غير ثابتة الصدور، أو مشتبهة الدلالة، تبرر تهميش المرأة، والنظر إليها بدونية واحتقار.

مما دفعني لتناول موضوع المرأة في أحاديث ومحاضرات متعددة، لطرح ما فهمته من رؤية الإسلام حول المرأة، وموقعيتها في مفاهيمه وتشريعاته، ولنقد بعض التصورات والممارسات الخاطئة بحق المرأة، ولمطالبة المرأة بالنهوض والفاعلية، لتأخذ مكانتها اللائقة، ودورها المتقدم في خدمة الدين والمجتمع، على هدي الكتاب والسنة.

---

(1) الترمذي: سنن الترمذي، حديث رقم 105.

فكان من حصيلة تلك الأحاديث والمحاضرات هذه السطور المتواضعة، التي كتبتها ونشرتها على شكل مقالات متفرقة، ورأيت الآن جمعها وتقديمها ضمن هذا الكتاب، الذي يتحرك بين يدي القارئ الكريم.

وأعرف مسبقاً أن بعض ما تحمله هذه السطور من آراء، قد يكون مورداً للنقاش واختلاف وجهات النظر، لحساسية موضوع المرأة في مجتمعنا، ولتباين الآراء و المواقف تجاهه.

لكن إثارة البحث، وتدوير النقاش، هو أفضل سبيل لإنضاج الرأي، وبلورة الفكر، وإدراك الحق والصواب.

ومن الله التوفيق وعليه الاتكال.

حسن بن موسى الصفار

20/ 2/ 1423هـ

المرأة حين تفوق الرجال

لا تزال بعض الأوساط تنظر إلى المرأة وكأنها أقل قيمة من الرجل، وأنها دونه رتبة وفضلاً، لذلك يجب أن يكون الرجل دائماً في المقدمة والأمام، وصاحب الرأي والأمر، وأن تبقى المرأة تابعة خاضعة، لمجرد أنها خلقت أنثى، وكان الرجل ذكراً.

ومن قديم الزمان كانت هناك تصورات وآراء خاطئة، تميّز بين الرجل والمرأة في القيمة الإنسانية، بل وتشكك في إنسانيتها، وفي هدفية وجودها، إن كان لذاتها أو من أجل الرجل؟

لكن انبثاق نور الإسلام شكّل منعطفاً، ونقلة تاريخية، في مسألة النظر إلى المرأة، وتحديد موقعيتها ومكانتها في المجتمع الإنساني.

حيث أكد الإسلام على وحدة النوع الإنساني، وتساوي شقيه الذكور والإناث في القيمة الإنسانية، وفي مصدر الخلقة

وأصل التكوين. يقول تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[1] ويقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾[2]. والخطاب للإنسان ذكراً وأنثى بأن الله تعالى قد خلق له من نفس جنسه ونوعه زوجاً تتكامل به حياته. فالرجل زوج المرأة ومن ذات جنسها، والمرأة زوج الرجل ومن نفس نوعه.

وخالقهما واحد وهو الله تعالى، وقد أنشأهما من مصدر واحد وعبر نظام وطريقة واحدة يقول تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾[3].

والمرأة كالرجل أوجدها الله تعالى لذاتها، ومن أجل أن تحقق العبودية والخضوع لله تعالى في حياتها، تماماً كما هو هدف وجود الرجل. يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[4]. وورد عنه ﷺ أنه قال: «إنما النساء شقائق الرجال»[5].

---

(1) سورة النساء الآية 1.
(2) سورة النحل الآية 73.
(3) سورة المدثرالآية 36 ـ 39.
(4) سورة الذاريات الآية 56.
(5) ابن حنبل: أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل حديث رقم 26725.

التمايز والتفاضل

وبناءً على أصل المساواة والمشاركة في القيمة الإنسانية بين الرجل والمرأة، لا تكون الذكورة ميزة للتفوق والتميز، فالرجل باعتباره رجلاً، ليس أفضل من المرأة لكونها امرأة.

ذلك أن الإسلام أقرّ معايير وقيماً للتفاضل والتمايز بين أبناء البشر، ذكوراً وإناثاً، فمن كان منهم أقرب إلى تلك المعايير، وأكثر التزاماً بتلك القيم، فهو الأفضل، رجلاً كان أو امرأة.

ومعايير التفاضل والتمايز في الإسلام ثلاثة:

1- التقوى: وهي تعني الالتزام بمنهج الله تعالى وأمره، فالأوفر حظاً منها، هو الأقرب إلى الله، والأعلى شأناً عنده، من أي عرق كان، وإلى أي قبيلة انتسب، ذكراً كان أو أنثى، يقول تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

وورد عنه ﷺ أنه قال: «إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ونبيكم واحد، ولا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى»[2].

2- العلم: والذي هو ميزة الإنسان عمن سواه من المخلوقات، وبه يعرف ربه، ويدرك ذاته، ويفهم ما حوله، وكل من كان أكثر نصيباً من العلم، أصبح أكثر أهلية وجدارة. يقول تعالى: ﴿يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[3]. ويقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[4].

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أكثر الناس قيمة أكثرهم علما وأقل الناس قيمة أقلهم علما»[5].

وورد عن الإمام علي عليه السلام قوله: «قيمة كل امرءٍ ما يحسنه»[6].

---

(1) سورة الحجرات الآية 13.
(2) الهندي: علي المتقي، كنز العمال حديث رقم 5655.
(3) سورة المجادلة الآية 11.
(4) سورة الزمر الآية 9.
(5) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار ج 1 ص 164.
(6) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، قصار الحكم 81.

3- العمل: فحركة الإنسان في الاتجاه الصحيح، وإنجازه وفاعليته في طريق الخير، هي التي تحدد موقعيته في الدنيا، ومكانته في الآخرة، يقول تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[2].

وواضح للمتأمل أن هذه المعايير التي أقرها الإسلام للتمايز والتفاضل، تعبّر عن قيم حقيقية واقعية، فالتقوى والعلم والعمل، كل واحدة منها تفرز نتائج ومعطيات مؤثرة لصالح حياة الفرد والمجتمع.

بينما قد تسود في بعض المجتمعات معايير ومقاييس لا واقعية لها، أو تدفع باتجاه مؤثرات سلبية، كالتفاضل على أساس العرق أو اللغة أو اللون، أو مسابقات اختيار ملكات الجمال، أو لمجرد تسجيل رقم قياسي في موسوعة غينيس للأرقام القياسية، كتربية أطول شارب، وصنع أكبر فطيرة، أو كعكة، وإنجاز أطول قبلة..

من ناحية أخرى فإن مقاييس التفاضل في الإسلام كلها اختيارية كسبية، يمكن لأي إنسان أن يحصل منها بمقدار سعيه وجهده، وهي ليست كاللون أو العرق أو الشكل، الذي لا

(1) سورة الأنعام الآية 132.
(2) سورة الملك الآية 2.

دخل للإنسان فيه، وليس هو الذي يختاره، ولو كانت الذكورة من معايير التفاضل عند الله تعالى، كان ذلك خلاف العدل والإنصاف، لأن الإنسان لا يختار ذكورته أو أنوثته، وإنما هي قدر إلهي، فكيف يكون مقياساً لتحصيل الفضل أو الحرمان منه؟

فرص التقدم أمام المرأة

وانطلاقاً من هذه المعايير والقيم الإسلامية فإن الحياة ساحة مفتوحة للسباق والتنافس على الخير، والطريق مشرع أمام الجميع، وبإمكان المرأة كالرجل، أن تشمّر عن ساعد جدها، وتستنهض قدراتها وإمكانياتها، لتحرز أكبر قدر من التفوق، وتحقق أعلى درجة من التقدم، في آفاق العلم والعمل، والالتزام بتقوى الله تعالى.

وليست هناك مساحة في أشواط السباق خاصة بالرجال، محظورة على النساء، لذلك تحدث القرآن الكريم في آيات عديدة عن إتاحة فرص التقدم أمام المرأة كالرجل في مختلف المجالات.

يقول تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ

عَنهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[1].

فكل جهد تبذله المرأة، وكل عطاء تقدمه، يكون موضع الاحترام والتقدير، وعلى أساسه تتحدد موقعيتها ومكانتها.

ويقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

فالعمل الصالح المنبثق من الإيمان والتقوى، هو الذي يمنح درجة التقدم للإنسان في الدنيا والآخرة، ولا تؤثر الذكورة والأنوثة في تقييم مستوى العمل.

ولتأكيد هذه الحقيقة تستعرض الآية الكريمة رقم 35 من سورة الأحزاب، العديد من مجالات الخير، وآفاق التقدم والسمو، مع ذكر المرأة المتصفة بذلك جنباً إلى جنب الرجل، لإثبات حضورها وأهليتها لاقتحام كل الميادين، وإنجاز مختلف المهام، وأنها لا تقصر عن الرجل في استعداداتها وقابلياتها. يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ

---

(1) سورة آل عمران الآية 195.

(2) سورة النحل الآية 97.

وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

---

(1) سورة الأحزاب الآية 35.

الأنوثة لا تمنع التفوق

التسابق في ميدان القيم الفاضلة يعتمد على أمرين: الإرادة وقابلية المعرفة، فبالإرادة تتوفر ملكة التقوى، وتتحقق الإنجازات والمكتسبات، وبالعقل يُنال العلم والمعرفة، والإرادة والعقل منحتان إلهيتان للإنسان لا تختص بالرجال دون النساء، ولا تتفاوت درجتهما بين الصنفين، وإنما يتفاوت أفراد البشر ذكوراً وإناثا في مدى استفادتهم واستثمارهم لهاتين النعمتين العظيمتين. وعلى هذا الأساس تتحدد رتبة كل فرد ودرجة تقدمه وتفوقه.

وبإمكان المرأة أن تقطع شوطاً أبعد، وتنال درجة أكبر من الرجل، إذا ما تفوقت عليه في السعي نحو العلم، وبذل الجهد في العمل، وفي الالتزام بتقوى الله تعالى.

فأنوثتها لا تمنعها من التفوق، ولا تعوّق حركة تقدمها، ولا تفرض عليها أن تكون في رتبة تالية، أو في موقع التبعية والانقياد.

وقد يستشهد البعض بنصوص دينية، مفادها أفضلية الرجل ذاتاً على المرأة، وأنها دونه رتبة كقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[1].

والآية الكريمة إنما تتحدث عن العلاقة الزوجية، وأن الرجل قوّام بحقوق زوجته عليه، ومسؤول عن رعايتها وحمايتها والإنفاق عليها، وأن له عليها حق الطاعة في حياتهما الزوجية، وفق الضوابط الشرعية، ولا يستفاد من الآية أن كل رجل قوام على كل النساء، ولم يقل أحد من الفقهاء والعلماء بسلطة أي رجل على أي امرأة خارج إطار العلاقة الزوجية، إلا فيما يرتبط بولاية الأب على أبنائه وبناته ضمن تفصيل في مسائله وأحكامه.

وحتى في الحياة الزوجية فقوامة الرجل على امرأته ضمن حدود علاقتهما، ولا شأن له بآرائها وأفكارها، ولا بتصرفاتها المالية، أو مواقفها الاجتماعية وما شابه.

يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين رحمه الله: (والظاهر من الآية الكريمة أن المراد فيها قوامّية الرجال على النساء في الأسرة فقط، وباعتبار علاقة الزوجية فقط، بحيث لا منافاة

(1) سورة النساء الآية 34.

بين كون الزوج قيّماً على المرأة باعتباره زوجاً، وتكون قيّمة عليه باعتبار آخر ككونها رئيسة لجمعية خيرية أو سياسية أو نقابية هو عضو فيها.. اللهم إلا أن يُنفى أهليتها لتولي أي مسؤولية على جماعة فيها رجل، فلا تصلح لرئاسة جمعية، بل ينبغي على هذا ألاّ يصح منها أن تستأجر رجلاً أو رجالاً للقيام بعمل يقتضي أن تأمرهم وتنهاهم بشأنه وهذا ما لا يمكن الالتزام به قطعاً ولا نظن أن فقيهاً يلتزم به)[1].

كذلك فإن الروايات التي تتحدث عن نقص عقل المرأة قياساً إلى الرجل، فإن هناك نقاشاً في سندها، وإن بعضها جاءت مرسلة أو بسند ضعيف، وحتى لو كان سندها صحيحاً فلا يمكن قبولها بظاهرها، لمنافاتها ومخالفتها لسائر النصوص والمبادئ، ولإمكانية تأويلها وفهمها بطريقة أخرى، لا تستوجب الحط من قدر المرأة ومكانتها.

(1) شمس الدين: محمد مهدي، أهلية المرأة لتولي السلطة، ص 68.

نماذج رائدة في التفوق

تقدم المرأة في ميدان العلم والفضيلة، وتفوقها على الرجال في ساحة المجد والعظمة، ليس أمراً نظرياً يبحث ضمن دائرة الإمكان والاحتمال، وإنما هو أمر حاصل ومتكرر على مستوى الواقع التاريخي في أكثر من مجتمع، وعلى أكثر من صعيد.

حيث يسجل لنا تاريخ البشرية بإكبار وإعظام، مواقف رائعة لشخصيات نسائية، برزت في مجتمعاتها، وتفوقت بمواصفاتها النبيلة، والتزامها الإيماني، وعطائها العلمي والعملي، على معاصريها من الرجال.

امرأة فرعون:

كان فرعون طاغية مستبدا، بل هو رمز وعنوان للطغيان والاستبداد، ادعى الألوهية، ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى﴾[1].

---

(1) سورة النازعات الآية 24.

وخضع له آلاف أو ملايين الرجال والنساء، رهبة من بطشه، أو رغبة في عطائه، لكن امرأة واحدة تحدّت ذلك الطغيان، وتمردت على ذلك الجبروت، إنها زوجته آسيا بنت مزاحم، والتي كانت تعيش تحت هيمنته، لكنها استجابت لدعوة الحق، وآمنت بالله تعالى رباً، وصدقت بموسى نبياً، وقاومت كل ضغوط فرعون وإغراءاته، تخلت عن موقعها كملكة لمصر، وعن كل مظاهر السلطة والترف والرخاء، بل تحملت التعذيب والتنكيل، التزاماً منها بالهدى، وصموداً على الحق، حتى فارقت الحياة شهيدة محتسبة.

إنها امرأة ولكنها أفضل من كل الرجال الخاضعين والخانعين للظلم والاستبداد الفرعوني. . لذلك يقدمها الله تعالى نموذجاً للأجيال المؤمنة رجالاً ونساءً على مر العصور، يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1].

بلقيس ملكة سبأ:

ويقدم القرآن الكريم ملكة سبأ (بلقيس) نموذجاً للموقف الحكيم، والتصرف الواعي، في إدارة السلطة والحكم،

---

(1) سورة التحريم الآية 11.

فحينما تلقت كتاب نبي الله سليمان ؟يدعوها وقومها إلى الله، لم تتساهل في الأمر، ولم تستبد في اتخاذ القرار، بل استدعت أعيان الشعب، ورجالات الدولة، لتستشيرهم في الموقف المناسب ﴿قَالَتْ يَاأَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ. أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَتْ يَاأَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِي﴾[1].

وحينما أظهر أكثر رجالات حكمها ميلهم إلى إظهار القوة والرفض تجاه دعوة نبي الله سليمان، على أساس امتلاك القدرة العسكرية الكافية، ﴿قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[2].

أبدت بلقيس موقفاً أكثر حكمة وتعقلاً، بضرورة التعرف أولاً على حقيقة دعوة سليمان، هل أنها مجرد غطاء لأطماع توسعية، ومطامح مادية، أم أن لها مغزى آخر، وعلى أساس تشخيص الواقع يتم اتخاذ القرار المناسب، فاقترحت إرسال هدايا ضخمة إلى سليمان لمعرفة ردود فعله ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ

(1) سورة النمل الآية 29 ـ 32.
(2) سورة النمل الآية 33.

يَفْعَلُونَ. وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[1].

وكانت النتيجة أن اكتشفت صدق الدعوة الإلهية، فقادت بلادها وقومها إلى حظيرة الإيمان والحق: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

ولا بأس أن نشير هنا إلى أن القرآن لم يورد في سياق قصة ملكة سبأ أي اعتراض أو تنديد، بتبوئها لموقع الحكم والسلطة، وما ذم قومها لخضوعهم لحكم امرأة. كما أن نتيجة موقفها هو فلاح وصلاح قومها بدخولهم في دين الله، مما يوجب النقاش في معنى الحديث المروي عن رسول الله ﷺ أنه ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملّكوا عليهم بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»[3].

وقد ورد هذا الحديث في بعض المصادر الشيعية ككتاب الخلاف للشيخ الطوسي وتحف العقول للحرّاني، ولكن برواية مرسلة، وبالتالي لا يمكن اعتماده عندهم. أما عند أهل السنة فقد أورده البخاري في صحيحه والنسائي والترمذي وقال عنه

(1) سورة النمل الآية 34 ـ 35.
(2) سورة النمل الآية 44.
(3) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم 4425.

الترمذي: (هذا حديث صحيح) كما رواه ابن حنبل في مسنده.

لكن يمكن المناقشة في معنى الحديث ومدلوله، بأنه بقصد الإخبار عن مستقبل الانهيار لمملكة الفرس كما حصل ذلك بالفعل على أيدي المسلمين. ولا يفيد حكماً مطلقاً ونهياً شرعيا.

وللشيخ محمد الغزالي تعليق جميل حول الموضوع نقتطف منه ما يلي:

وقد تأملت في الحديث المروي في الموضوع «خاب قوم ولوا أمرهم امرأة» مع أنه صحيح سنداً ومتناً، ولكن ما معناه؟ عندما كانت فارس تتهاوى تحت مطارق الفتح الإسلامي كانت تحكمها ملكية مستبدة مشؤومة، الدين وثني، والأسرة المالكة لا تعرف شورى، وكان في الإمكان وقد انهزمت الجيوش الفارسية، وأخذت مساحة الدولة تتقلص، أن يتولى الأمر قائد عسكري يوقف سيل الهزائم، لكن الوثنية السياسية جعلت الأمة والدولة ميراثاً لفتاة لا تدري شيئاً، فكان ذلك إيذاناً بأن الدولة كلها إلى ذهاب، في التعليق على هذا كله قال النبي الحكيم كلمته الصادقة، فكانت وصفاً للأوضاع كلها.

إن النبي ﷺ قرأ على الناس في مكة سورة النمل، وقص عليهم في هذه السورة قصة ملكة سبأ، التي قادت قومها إلى

الإيمان والفلاح بحكمتها وذكائها، ويستحيل أن يرسل حكماً في حديث يناقض ما نزل عليه من وحي!

إن إنجلترا بلغت عصرها الذهبي أيام الملكة (فكتوريا) وهي الآن بقيادة ملكة، وقادتها لسنوات رئيسة وزراء (تاتشر)، فأين الخيبة المتوقعة لمن اختار هؤلاء النسوة؟[1]

(1) أبو شقة: عبد الحليم، تحرير المرأة في عصر الرسالة ج 2 ص370.

محدثات وفقيهات يعلّمن الرجال

بالجد والاجتهاد والعلم والمعرفة فرضت المرأة المسلمة شخصيتها في عصور التاريخ، وكان المجتمع الإسلامي يعترف للمرأة الكفوءة بكفاءتها، وما كان الرجال يتوقفون أو يترددون في الرجوع إلى ذات الكفاءة والعلم، بل كانوا يحترمون المرأة العالمة، ويأخذون عنها الحديث والفقه والأدب، وتحتفظ لنا كتب التاريخ والتراجم بسير العديد من العالمات العارفات اللاتي كن يمثلن دوراً مرجعياً في مجتمعاتهن، وكن يعلمن الرجال، ويفضن عليهم من علومهن ومعارفهن.

فقد جاء في ترجمة السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام صاحبة المقام المشهور الذي يزار في القاهرة، والمولودة بمكة سنة 145هـ ونشأت بالمدينة المنورة، ثم دخلت مصر مع زوجها إسحاق بن جعفر الصادق حتى توفيت هناك سنة 208هـ. يقول الأستاذ عبد اللطيف فايد: كانت دارها مزار كبار العلماء في

عصرها، يجلسون إليها، ويستمعون منها، ويناقشون مسائل العلم معها.. ومن العلماء الذين لم ينقطعوا عن زيارتها للتزود من علمها إسماعيل بن يحيى المزني، وهو فقيه عالي المعرفة بالدين كثير التلاميذ. ومن العلماء الذين داوموا على التعلم في مجلسها ثوبان بن إبراهيم، المعروف بذي النون المصري، وعثمان بن سعيد المصري، وعبد الله بن عبد الحكم الذي انتهى إليه مجلس الإمام مالك، وكذلك عبد السلام بن سعيد الفقيه المالكي الذي غلب عليه اسم سحنون. ومنهم يوسف بن يحيى البويطي الذي أسند إليه الإمام الشافعي رئاسة حلقته في التدريس.

ويعتبر الإمام الشافعي أكثر العلماء جلوساً إليها وأخذاً عنها في الوقت الذي بلغ فيه من الإمامة في الفقه مكاناً عظيماً، فقد كان يعتبر مجلسه في دارها مجلس تعلم عنها، ومجلسه في مسجد الفسطاط مجلس تعليم للناس. وللإمام أحمد بن حنبل نصيب في الأخذ عن نفيسة (رضي الله عنها) وبهذا تكون نفيسة ذات أثر علمي في فقه عالمين كبيرين من أئمة المسلمين وهما الشافعي وأحمد بن حنبل[1].

وجاء في ترجمة فاطمة بنت محمد بن أحمد السمرقندية، بنت صاحب تحفة الفقهاء، وزوجة علاء الدين الكاساني

---

(1) المسلمون: جريدة يومية، لندن عدد 609 بتاريخ 22/ 5/ 1417هـ.

صاحب بدائع الصنائع، أنها تفقهت بأبيها، وأن الفتوى كانت تخرج من البيت وعليها خطها وخط أبيها، ولما تزوجت بالكاساني صارت الفتوى تخرج من بيتها، وعليها خطها، وخط أبيها، وخط زوجها، وأن زوجها ربما كان يهم في الفتوى فترده إلى الصواب، وتعرّفه الخطأ، فيرجع إلى قولها[1].

ومن أشهر محدّثات المئة الثانية حفصة بنت سيرين، أخت محمد بن سيرين، كانت من سيدات التابعيات، اشتهرت بالعبادة والفقه والحديث وقراءة القرآن. كان أخوها إذا شكل عليه شيء من القرآن قال: (اذهبوا فاسألوا حفصة كيف تقرأ). روت عن جماعة من الصحابة وكبار التابعين، وروى عنها أخوها محمد، وقتادة، وعاصم الأحول وغيرهم. أثنى عليها إياس بن معاوية فقال: (ما أدركت أحداً أفضله على حفصة)[2].

ومن المحدثات البارزات في القرن الخامس كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية، قدمت مكة المكرمة وجاورت بها، وكانت عالمة صالحة، قرأ عليها الأئمة كالسمعاني، والخطيب

---

(1) المعتوق: الدكتور صالح يوسف، جهود المرأة في رواية الحديث ص 10.

(2) المصدر السابق ص 80.

البغدادي، وسمع منها خلق كثير توفيت بمكة سنة 463هـ[1].

وجاء في ترجمة ست الوزراء بنت عمر بن أسعد المنجّا (624هـ - 716هـ) وأنها كانت تُسمع الناس الحديث بدمشق ثم استقدمت إلى مصر وأخذ عنها جمع من محدثي مصر، وصارت الرحلة إليها من سائر الأقطار للسماع عليها، وبلغ عدد الذين أخذوا عنها وتتلمذوا على يدها أكثر من تسعين عالماً ومحدثاً[2].

رقم قياسي في التأليف:

وفي عصرنا الحاضر فإن امرأة قد ضربت الرقم القياسي في عدد الروايات المنشورة، وهي الكاتبة الجنوب إفريقية (كاثلين ليندساي 1903م-1973م) والتي نشرت 904 روايات خلال حياتها التي لم تتجاوز السبعين عاماً[3].

كما تعتبر الآن الروائية الكاتبة (باربرا كارتلاند) سيدة القصة العاطفية في العالم، حيث تجاوز قراؤها 700 مليون شخص، وهي تكتب يومياً سبعة آلاف كلمة أي فصل كامل وأكثر أحياناً.

---

(1) المصدر السابق ص 82.

(2) المصدر السابق ص 201 ـ 218.

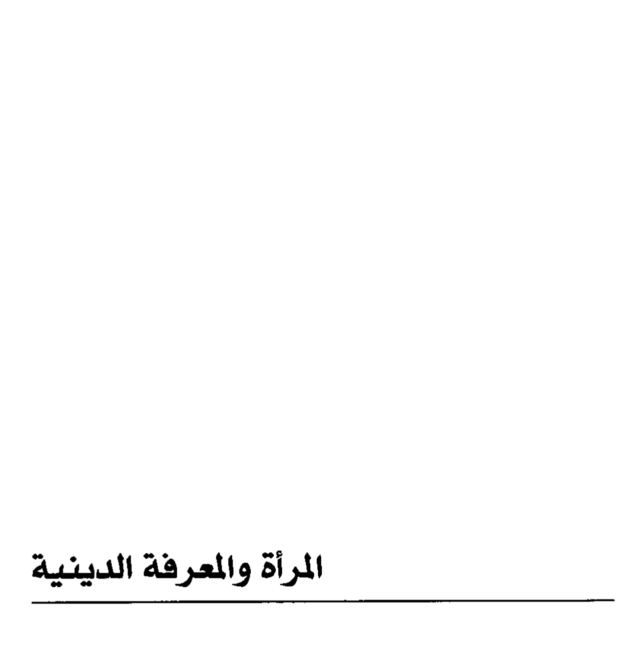
(3) الفيصل: مجلة ثقافية شهرية، عدد 222 ص 134 مايو 1995م.

عمرها 97 سنة، تصدر قصة جديدة كل أسبوعين، ووصل مجموع قصصها 687 قصة، ادرج اسمها لسنوات في كتاب (غينيس) كأكثر كتاب القصة غزارة في الإنتاج. ترجمت قصصها إلى أربعين لغة من بينها العربية واليابانية والروسية والأردو[1].

هكذا كانت المرأة سبّاقة في ميادين المعرفة والفضل، وهكذا تثبت المرأة عملياً إمكانية تقدمها وتفوقها على الرجال.

---

(1) مجلة المجلة2: اسبوعية، لندن عدد 962 ص14، 25 يوليو 1998م.



المرأة والمعرفة الدينية

هل المؤسسة الدينية العلمية مؤسسة ذكورية لا مكان فيها للمرأة؟

وهل أن حركة الاجتهاد والفقاهة محصورة في الرجال محظورة على النساء؟

ولماذا لا نجد للمرأة المسلمة المعاصرة دوراً في الحوزات العلمية والمؤسسات الدينية وساحة النشاط الفكري الإسلامي؟

تفرض هذه الأسئلة نفسها من عدة منطلقات:

أولاً: إن المرأة مخاطبة بالدين كالرجل تماماً، فالدين يخاطب الإنسان بقسميه الذكر والأنثى على حد سواء، وهو ليس للذكر أولاً وللأنثى ثانياً، ولا أن المرأة مخاطبة عبر الرجل وبالتبع له، بل هي مكلفة مباشرة من قبل الله تعالى ومحاسبة أمامه يوم القيامة كما هو الرجل.

وحينما يأتي في القرآن نداء للناس، أو لبني آدم، أو للعباد، أو للإنسان، فإنه موجه بالطبع للذكور والإناث، كقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿يَاعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ﴾[4]

إن هذه الآيات وأمثالها نداءات من قبل الله تعالى للرجل والمرأة، وكذلك فالتكاليف والأحكام الشرعية موجهة لهما معاً.

وباعتبارها مخاطبةً ومكلفةً فهي معنية بتلقي الخطاب وفهمه، وبمعرفة التكليف وتبينّه. ومن الطريف هنا أن ننقل الحديث المروي عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أنها سمعت النبي ﷺ يقول على المنبر: «يا أيها الناس! وكانت الجارية تمشطها، فقالت للجارية: استأخري عني -أي أمهليني حتى أسمع- فقالت الجارية: إنما دعا الرجال ولم يدع

(1) سورة الحج الآية 1.
(2) سورة يس الآية 60.
(3) سورة الزمر الآية 53.
(4) الانشقاق الآية 6.

النساء، فأجابتها أم سلمة: إني من الناس[1].

إضافة كمية ونوعية:

ثانياً: مشاركة المرأة في الحركة العلمية، والنشاط الفكري والشرعي الإسلامي، يعني مضاعفة الجهود التي تبذل في هذا الميدان، فالمرأة نصف المجتمع، وتمتلك الطاقة والكفاءة، فإذا ما وجهت قدراتها وإمكانياتها الذهنية والفكرية، في خدمة البحث العلمي الديني، أضافت إليه رصيداً كبيراً، وإثراءً عظيماً.

بينما انكفاؤها عن هذا الميدان يعني خسارة ونقصا.

وقد تكون عدم مشاركة المرأة في ميدان العلوم الدينية خسارة نوعية في بعض الأحيان، لأن مشاركتها لا تضيف رصيداً كمياً في الجهود العلمية المبذولة فقط، بل قد تقوم المرأة بدور مميز، وخاصة في تنقيح الأحكام والموضوعات المرتبطة بشؤون المرأة، والقضايا المختصة بها، فالفقيه في ممارسته لاستنباط الحكم الشرعي ليس جهاز حاسوب آلي، ينجز مهامه بعيداً عن أي تأثير، بل هو بشر تنعكس الأجواء المحيطة به، والمشاعر والتصورات التي يحملها على رأيه

(1) القشيري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الفضائل 29 حديث رقم 2295.

ورؤيته، بشكل أو بآخر، وخاصة في مجال تنقيح الموضوعات الخارجية. فإذا امتلكت المرأة قدرة الاجتهاد والاستنباط، وتصدت لبحث القضايا والأحكام المرتبطة بها، ضمن الضوابط المقررة، فقد يكون تشخيصها أعمق وأدق في تلك الموضوعات..

صراع بين الحضارات:

ثالثاً: في هذا العصر وحيث أصبح موضوع المرأة معركة صراع بين الحضارات والتوجهات، ووظفت الحضارة المادية وسائل الإعلام والمعلومات المتطورة، للتبشير برؤيتها وثقافتها، ولترويج أنماط السلوك الاجتماعية المنبثقة عنها، فإن من الضروري جداً أن تتسلح المرأة المسلمة برؤية الإسلام، وأن تتحصن بمفاهيمه ومناهجه، حتى لا تقع فريسة لتأثيرات الأفكار والبرامج الوافدة، خاصة وأنها تستهدف المرأة بدرجة أساسية، وأيضاً لتكون المرأة المسلمة هي خط الدفاع عن تعاليم الإسلام، والمبشّرة بمفاهيمه وقيمه الأخلاقية الاجتماعية، على مستوى العالم.

إن مؤتمرات كبرى عالمية تعقد حول موضوع المرأة، كمؤتمر (نيروبي) عام 1975م، ومؤتمر (بكين) عام 1995م، ضمن سياق إبراز النموذج الغربي للمرأة، وتعميمه لكل المجتمعات البشرية، وهناك سيل لا ينقطع من البرامج

الإعلامية والثقافية، عبر الأفلام والمجلات، والمؤسسات الاجتماعية الضخمة، التي تدفع بهذا الاتجاه.

فإذا ما كانت المرأة محدودة المعرفة والوعي الديني، أو لم تكن مفاهيم الإسلام واضحة وراسخة في ذهنها وفكرها، فإنها لن تصمد أمام هذه الثقافة الغربية الزاحفة.

إن تفقه المرأة في الدين، وإلمامها بمعارفه، وتعمقها في فهم أحكامه ومناهجه، هو الذي يؤهلها للقيام بدور الدعوة إلى الإسلام، والتبشير بنموذجه للمرأة على الصعيد العالمي.

المرأة والتنافس العلمي

بالعلم تميّز الإنسان على غيره من المخلوقات، ونال الجدارة من الله سبحانه بأن يكون خليفته في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] ولما تساءلت الملائكة عن مدى صلاحية الإنسان للقيام بهذا الدور، وهو ينطوي على غرائز وشهوات قد تقوده إلى الإفساد في الأرض؟ أجابهم الخالق القدير بإظهار ما منحه تعالى للإنسان من قدرة على التعلم، وكفاءة في كسب المعرفة، يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2].

---

(1) البقرة الآية 30.

(2) البقرة الآية 31 ـ 33.

هكذا أصبح العلم ميزة للإنسان، وصفة نال بها الجدارة للخلافة في الأرض، وكلما زاد علمه زاد تميّزه، واتسعت قدراته لتسخير قوى الطبيعة، واستثمار طاقات الكون والحياة.

وكما تميّز الإنسان على غيره بالعلم، فإن أفراد الإنسان يتمايزون فيما بينهم ويتفاضلون بالعلم أيضاً: ﴿يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة الآية11) ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1]

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أكثر الناس قيمة أكثرهم علماً، وأقل الناس قيمة أقلهم علما.[2]

فباب العلم مفتوح للراغبين فيه، وساحته ميدان سباق للمتنافسين على مقاماته. وكل إنسان مؤهل للولوج إلى هذا الميدان، بما منحه الله تعالى من نعمة إدراك وتعقل، دونما فرق بين شقيه الذكر والأنثى.

فالمرأة كالرجل، توازيه في إنسانيته، وتشاركه في القيام بدور الخلافة، وتحمل مسؤولية عمارة الأرض، وقد منحها الله تعالى كالرجل نعمة العقل، وقدرة الإدراك والمعرفة، ولا تختلف عنه في كونها تملك استعداداً وقابلية تامة لإدراك

---

(1) الزمر الآية 9.

(2) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، الطبعة الثالثة 1983م دار إحياء التراث العربي، بيروت، الجزء الأول ص 164.

الحقائق والمفاهيم، وتملك القدرة على العلم والتعلم، والسير في هذا الطريق إلى أقصى غاياته.

بل إن دماغ النساء يحتوي على خلايا الدماغ المسماة العصبونات، بنسبة تزيد بحوالي 10٪ عن دماغ الرجال، بالرغم من أن الرجال بصفة عامة أكبر حجماً من النساء، وأدمغتهم كذلك أكبر حجماً.[1]

والتفاوت في حجم الدماغ لا يؤثر في مستوى فعاليته، وإلا فدماغ الفيل يزن حوالي 6 كيلوغرامات بينما دماغ الإنسان لا يزن أكثر من 1300 غرام.[2]

وقد نشرت الدكتورة (كيمورا) الباحثة في الأسس العصبية والهرمونية للوظائف الفكرية -الذهنية- لدى الإنسان، وهي أستاذة في علم النفس في جامعة غربي اونتاريو، نشرت بحثاً علمياً حول الفوارق في الدماغ بين الجنسين، أكدت فيه وجود تفاوت متبادل في بعض الجوانب والمهارات، حيث يقابل تفوق كل طرف في جانب، تفوق الطرف الآخر في جانب آخر، وخلصت إلى (إن الفوارق الجوهرية بين الجنسين،

---

(1) الموسوعة العربية العالمية، الطبعة الثانية 1999م الرياض، السعودية ج10 ص 366.

(2) عاقل: الدكتور فاخر، علم النفس، الطبعة العاشرة، دار العلم للملايين، بيروت 1987م ص 62.

تكمن في الطُرُز المختلفة للمهارات الفكرية التي يتمتع بها كل منهما، أكثر مما هو راجع إلى المستوى العام للذكاء (حاصل الذكاء)، فمن المعروف أن هناك تفاوتاً بين الناس في قدراتهم الذهنية: فمنهم من يبرع في الجوانب اللغوية، ومنهم من يجيد الأعمال اليدوية، وهكذا يمكن لشخصين أن يتمتعا بمستوى واحد من الذكاء، مع اختلاف في نمط المهارات التي يجيدها كل منهما[1].

العلم فريضة على المرأة:

من هنا فإن دعوة الإسلام الإنسان إلى طلب العلم، وحثه البليغ على كسبه، موجهة إلى المرأة، كما هي موجهة إلى الرجل، وليس هناك نص واحد من آيات القرآن الكريم، أو أحاديث السنة الشريفة في هذا السياق مقتصر على الرجل وحده. ولزيادة التأكيد على هذه الحقيقة فإن الحديث الشريف المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم والذي يعتبر طلب العلم فريضة واجبة وليس أمراً ثانوياً كمالياً حيث يقول ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم «هذا الحديث ورد في إحدى صيغه إضافة» ومسلمة مع أن (كل

---

(1) كيمورا: الدكتورة، الفوارق في الدماغ بين الجنسين، مجلة العلوم، الترجمة العربية لمجلة العلوم الأمريكية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، المجلد 10 العدد 5 مايو 1994م ص 76.

مسلم) موضوعه الشخص فيشمل الذكر والأنثى، على حد تعبير أبي الحسن الحنفي السّندي في شرحه لسنن ابن ماجة القزويني[1] إلا أن ورود لفظة(ومسلمة)هو لمزيد التأكيد على شمول الأمر للرجال والنساء.

وقد وردت هذه الإضافة (ومسلمة) في الحديث، ضمن مصدرين حديثيين هما (غوالي اللئالئ العزيزية) لأبي جمهور الاحسائي، و(مصباح الشريعة) المنسوب للإمام جعفر الصادق عليه السلام كما نقل عنهما الشيخ المجلسي في (بحار الأنوار)[2] أما المصادر الأساسية الأخرى كسنن ابن ماجة والأصول من الكافي للشيخ الكليني فلم ترد فيها هذه الإضافة.

بقي أن نشير إلى أن العلم الذي يكون طلبه مفروضاً شرعاً هو ما تتوقف عليه حياة الإنسان الدنيوية ومصيره الأخروي.

---

(1) السندي: أبو الحسن الحنفي، شرح سنن ابن ماجة القزويني ج 1 ص99 دار الجيل، بيروت.
(2) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج 1 ص 177 ـ ج2 ص 32.

المرأة والعلوم الدينية

كانت المرأة سبّاقة إلى التعرف على الرسالة، وإلى الإطلاع على الآيات القرآنية الأولى التي نزل بها الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، حيث كانت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد أول من اطلع على خبر البعثة النبوية، إذ حينما نزل الوحي للمرة الأولى في غار حراء، وعاد الرسول ﷺ بعدها إلى بيته، فإنه حدّث زوجته خديجة بما رأى وسمع، فقالت: أبشر يا بن عم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة[1]

وكما كان علي بن أبي طالب أول ذكَر آمن برسول الله وصلى معه[2]، فإن خديجة بنت خويلد أول امرأة آمنت به، وصدقت بما جاءه من الله تعالى، فكان علي وخديجة هما

---

(1) ابن هشام: عبد الملك، السيرة النبوية، إعداد مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الأولى 1994م، ج 1 ص274.

(2) المصدر السابق ص 282.

السابقان إلى الإسلام، ثم توالى بعدهما إسلام بقية الأصحاب كأبي بكر وزيد بن حارثة.

واهتمت المرأة المسلمة بكسب المعارف الإسلامية، عبر تواجدها في المسجد، واستماعها للخطب النبوية الشريفة، وحضورها في مختلف المناسبات العسكرية والسياسية والاجتماعية، ومشاركتها في معظم الأحداث والقضايا التي واكبت بناء المجتمع الإسلامي الأول، ومسيرة الأمة.

وكمصداق لرغبة المرأة المسلمة في تحصيل علوم الشريعة، فقد تقدمت مجموعة من النساء تطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم درساً خاصاً بهنّ، كما ورد عن أبي سعيد الخدري أنه قال: قالت النساء للنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك فوعدهن يوماً لقيهنَّ فيه فوعظهن وأمرهن.[1]

وكان رسول الله ﷺ يهتم بإيصال حديثه وتوجيهه للنساء، حتى أنه ربما كرر خطبته للنساء بعد أن يخطب الرجال، إذا ظن أنهن لم يسمعن صوته، كما حدّث ابن جُرَيج قال: أخبرني عطاء، عن جابر بن عبد الله قال: سمعته يقول: قام النبي ﷺ يوم الفطر فصلى، فبدأ بالصلاة، ثم خطب،

---

(1) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، المكتبة الثقافية، بيروت ج1 ص60، كتاب العلم، حديث رقم 42.

فلما فرغ نزل فأتى النساء، فذكرّهن، وهو يتوكأ على يد بلال، وبلال باسط ثوبه، يلقي فيه النساء الصدقة. قلت لعطاء: أترى حقاً على الإمام ذلك ويذكرهن؟ قال: إنه لحق عليهم، وما لهم لا يفعلونه؟[1]

فتربت المرأة المسلمة على الاهتمام بدينها، والحرص على معرفته، والتفقه فيه، وما كانت تتردد في الذهاب إلى الرسول ﷺ وسؤاله عما تحتاجه من الأحكام الشرعية، حتى في المسائل الخاصة بها، والمرتبطة بالقضايا الجنسية، حتى قالت أم المؤمنين عائشة: (نعم النساء نساء الأنصار! لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين.[2]

مصدر للسنة النبوية:

وبذلك أصبحت المرأة مصدراً للأحاديث النبوية الشريفة، ومرجعاً لنشر رواياتها ونصوصها، تماماً كالرجال من الصحابة الراوين لأحاديث السنة الشريفة، وكتب الحديث مليئة بالأحاديث الواردة عن طريق زوجات رسول الله ﷺ، وابنته فاطمة الزهراء عليها السلام، وسائر الصحابيات الراويات.

---

(1) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم 98 ورقم 978.

(2) القشيري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم كتاب الحيض، حديث رقم 61.

فهي كالرجل طريق لسنة رسول الله ﷺ، ومصدر لمعرفة أحكام التشريع، لذا أجمع علماء المسلمين على الأخذ بروايات النساء، حينما تتوفر في تلك الروايات شروط القبول والصحة. يقول الشيخ المامقاني:

(تقبل رواية الأنثى والخنثى إذا جمعت الشروط المذكورة (الإيمان، البلوغ، العقل، العدالة، الضبط) حرة كانت أو مملوكة. كما صرح بذلك كله الفاضلان وغيرهما، بل نفى العلامة في النهاية الخلاف فيه، وادعى في البداية: إطباق السلف والخلف على الرواية عن المرأة)[1].

وقال الشوكاني: (لم ينقل عن أحد من العلماء بأنه رد خبر امرأة لكونها امرأة، فكم من سنة تلقتها الأمة بالقبول من امرأة واحدة من الصحابة، وهذا لا ينكره من له أدنى نصيب من علم السنة).[2]

وقد أثبت الإمام الخوئي في موسوعته (معجم رجال الحديث) (باب النساء) أسماء 134 راوية روين الأحاديث عن

---

(1) المامقاني: الشيخ عبد الله، مقباس الهداية في علم الدراية، تحقيق الشيخ محمد رضا المامقاني، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى 1991م ـ بيروت ج 2 ص 50.

(2) أبو شقة: عبد الحليم، تحرير المرأة في عصر الرسالة، الطبعة الأولى 1990م دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت ج 1 ص 118.

رسول الله ﷺ وعن الأئمة من آله.[1]

وقد صدر مؤخراً كتاب بعنوان (عناية النساء بالحديث النبوي) لمؤلفه مشهور بن حسن آل سلمان، ترجم فيه لنحو 354 امرأة كان لهن دور في هذا الإطار.

ففي حدود القرن الأول الهجري وجد عدد كبير من الراويات للأحاديث النبوية - لاسيما في طبقة الصحابيات - فقد بلغ عدد من لهن رواية من الصحابيات في الكتب الستة لأهل السنة 132 امرأة.

ويقول أحد الباحثين: وكان للنساء الراويات -في القرون السابقة- منقبة ومفخرة انفردن بها عن الرواة، هي أنه لم يكن منهن امرأة اتهمت بالكذب، أو الوضع، أو ترك حديثها. بينما وصف المئات من الرجال بهذه الأوصاف. قال الذهبي في أواخر كتابه ميزان الاعتدال: (وما علمت في النساء من اتهمت ولا من تركوها). وعقد ابن عرّاق الكناني فصلاً سرد فيه أسماء الوضّاعين والكذّابين، فبلغوا المئات، لم توجد فيهم امرأة واحدة. فحسب النساء بذلك فخرا.[2]

---

(1) الخوئي: السيد أبو القاسم، معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، الطبعة الرابعة قم، إيران 1410 هـ ج 23 ص 170.

(2) معتوق: الدكتور صالح يوسف، جهود المرأة في رواية الحديث القرن الثامن الهجري ص 85 الطبعة الأولى 1997م دار البشائر الإسلامية، بيروت.

وقد بلغ عدد المحدّثات اللاتي اهتممن برواية الحديث النبوي، وعرفن بذلك، في القرن الثامن الهجري فقط 232 امرأة، هذا ما نقلته كتب التراجم ولعلهن أكثر من هذا العدد.

هذا ولم يقف مستوى المرأة في العلوم الدينية عند مستوى حفظ الحديث ونقل الرواية، بل نافست الرجل في الوصول إلى مستوى الفقاهة والاجتهاد، وإبداء الرأي والنظر باستنباط الحكم الشرعي من مصادره المقررة.

المرأة والدور القيادي

هل يمكن للمرأة أن تكون صاحبة رأي في مجال الفكر والتشريع الإسلامي؟ وهل يحق لها المشاركة في حركة الاجتهاد واستنباط الحكم الشرعي؟

أم أن أنوثتها تقصر بها عن بلوغ هذا المقام وتبقيها ضمن حدود الاتباع والتقليد للرجل؟

من المعلوم أن مفاهيم الدين وأحكامه تؤخذ من الكتاب والسنة، وهما خطاب مفتوح لكل ذي عقل، وموجهان لكل إنسان، ووعيهما والتدبر فيهما مطلوب من كل مكلف، ذكراً كان أو أنثى، فحينما يقول تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾[1] ويقول تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾[2] ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[3] وحينما يقول

(1) سورة آل عمران الآية 138.
(2) سورة النساء الآية 82.
(3) سورة القمر الآية 17.

النبي ﷺ: «نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها»[1] فهذه الخطابات والأوامر لا تختص بالرجال دون النساء.

فكما يتفهّم الرجل آيات الكتاب العزيز، وأحاديث الرسول الكريم (صلى اللّه عليه وآله وصحبه وسلم)، ويعرف منهما واجبه وتكليفه، فكذلك الحال بالنسبة للمرأة، وهذا ما كان معمولاً به في عصر النبوة والإمامة.

وإذا كانت المسافة الزمنية التي تفصلنا عن عصر التشريع، قد جعلت عملية فهم النص الشرعي، ومعرفة الوظيفة من خلاله، تحتاج إلى درجة من الخبرة في بعض العلوم كأرضية ومقدمات لتحصيل القدرة على استنباط الحكم الشرعي من مصادرة المقرره، كاللغة العربية، وتفسير القرآن، وعلم الدراية، وعلم الأصول.

فإن التوفّر على هذه الخبرة العلمية، إنما يستلزم حركة وقدرة ذهنية تمتلكها المرأة، كما يمتلكها الرجل. وبالتالي فبإمكان المرأة أن تصل إلى مستوى الفقاهة والاجتهاد، فتتعامل مع النص الشرعي مباشرة، وتستنبط المفاهيم والأحكام، وحينئذ ليست المسألة أنه يصح لها العمل بما يؤدي إليه رأيها واجتهادها، بل إنه يجب عليها ذلك.

---

(1) ابن حنبل: أحمد، مسند الإمام أحمد ابن حنبل، حديث رقم 16859.

لأن المجتهد - رجلاً كان أو امرأة - إذا استنبط الحكم بالفعل، فلا يجوز له أن يترك ما اتضح له أنه حكم الشرع، ويعمل برأي آخر.

فالمرأة يمكن أن تكون فقيهة مجتهدة، وأن تعمل برأيها وحسب اجتهادها.

المرأة والمرجعية

ناقش الفقهاء مسألة أهلية المرأة للتصدي للمرجعية والتقليد، بحيث يعتمد الآخرون على فتاواها، وتصبح مرجعية دينية تؤخذ منها الأحكام الشرعية.

والرأي السائد لدى الفقهاء والذي يذكرونه في رسائلهم العملية، هو عدم جواز تقليد المرأة، وإن اجتمعت فيها كل الشروط والمواصفات، على أساس أن الذكورة شرط في المرجعية.

لكن الملفت للنظر، أن أغلب أولئك الفقهاء حينما يناقشون المسألة علمياً وعلى صعيد الاستدلال والبحث، يعترفون بعدم وجود دليل مقنع للمنع من تقليد المرأة، ولسلبها أهلية المرجعية والإفتاء.

يقول السيد الحكيم في المستمسك: (وأما اعتبار الرجولة (في شرائط المجتهد المقلد) فهو أيضاً كسابقه عند العقلاء

(غير ظاهر عند العقلاء) وليس عليه دليل ظاهر غير دعوى انصراف إطلاقات الأدلة إلى الرجل، واختصاص بعضها به. ولكن لو سلم فليس بحيث يصلح رادعاً عن بناء العقلاء. وكأنه لذلك أفتى بعض المحققين بجواز تقليد الأنثى والخنثى)[1].

وقد بحث هذه المسألة الفقيه الشيخ محمد مهدي شمس الدين، وناقش أدلة المانعين، وخلص إلى: (أنه لا دليل على اشتراط الذكورة في مرجع التقليد، كما أن جميع ما ذكر لا يصلح للردع عن بناء العقلاء وسيرتهم على عدم الفرق، في رجوع الجاهل إلى العالم، بين كون العالم رجلاً أو امرأة، فيصح تقليد المرأة المجتهدة الفقيهة إذا كانت واجدة لبقية الشرائط المعتبرة في مرجع التقليد.

وعلى هذا اتفق الفقهاء وعلماء الحديث في باب الرواية.

والعمدة في المسألة بناء العقلاء، هذا مضافاً إلى أن أدلة حجية الرواية هي أدلة حجية الفتوى ومشروعية التقليد، ولا يمكن تجزئة دلالة الأدلة إلا بدليل مقيد أو مخصص، وقد تبين عدم وجود دليل من هذا القبيل. قال المحقق الأصفهاني: (فأما الذكورة فلا دليل عليها بالخصوص، وما

---

(1) الحكيم: السيد محسن الطباطبائي، مستمسك العروة الوثقى، الطبعة الرابعة 1391هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 1 ص 43.

ورد في باب القضاء من عدم تصدي المرأة له، وكذلك في الإمامة للرجال فالحكمة فيهما ظاهرة. وهل حال الفتوى إلا كحال الرواية، ولذا يستدل بأدلة حجية الخبر على حجية الفتوى، من دون اختصاص لحجية الرواية بالرجال. مع أنه لا ينبغي الريب في جواز العمل لها برأيها أيضاً)[1].

أما عند فقهاء السنة فيبدو أنهم متفقون على أن الذكورة ليست من شروط الإفتاء والمفتي، وبالتالي فهم يقبلون مرجعية المرأة في الأحكام الشرعية. جاء في الموسوعة الفقهية: (لا يشترط في المفتي الحرية والذكورية والنطق اتفاقاً، فتصح فتيا العبد والمرأة والأخرس)[2].

---

(1) شمس الدين: محمد مهدي، الاجتهاد والتقليد ص283 الطبعة الأولى 1998م، المؤسسة الدولية.

(2) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ج32 ص 26.

المرأة والاصطفاء الإلهي

تحدث القرآن الكريم في موارد عديدة عن مفهوم الاصطفاء، وأن الله تعالى قد اصطفى أفراداً من خلقه وعباده، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾[2] وقوله تعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ﴾[3] وعن نبيه موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي﴾[4] وآيات أخرى عديدة.

والاصطفاء في اللغة العربية من مادة الصفو والصفاء. جاء في لسان العرب: صَفوَة كل شيء خالصه. والصِفوة –

---

(1) سورة آل عمران الآية 33.
(2) سورة النحل الآية 59.
(3) سورة البقرة الآية 130.
(4) سورة الأعراف الآية 144.

بالكسر -: خيار الشيء وخلاصته وما صفا منه. والصَفِيُّ من الغنيمة: ما اختاره الرئيس من المغنم واصطفاه لنفسه قبل القسمة من فرس أو سيف أو غيره. واستصفيت الشيء إذا استخلصته. والاصطفاء الاختيار، افتعال من الصفوة. ومنه: النبي ﷺ صَفْوَة الله من خلقه ومصطفاه[1].

ويتبين من معنى الاصطفاء لغة، ومن سياق ورود هذا المفهوم قرآنياً، أن اصطفاء الله تعالى لأحد يعني شيئين:

1- صفاء وخلوص ذلك المصطفى من الشوائب والثغرات، بأن يكون في قمة النزاهة والكمال ذهنياً وسلوكياً.

2- اختياره وتمييزه عن الآخرين وتقديمه لهم كرمز وقدوة، ليكون نموذجاً يقتفى ويهتدى به في طريق الخير والصلاح.

ولإرادة هذين المعنيين كرّر الله تعالى ذكر الاصطفاء في خطابه للسيدة مريم ابنة عمران عليها السلام يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ الْمَلاَئِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[2].

يقول ابن عاشور: وتكرر فعل اصطفاك لأن الاصطفاء

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج 3 ص 454.
(2) سورة آل عمران الآية 42.

الأول اصطفاء ذاتي، وهو جعلها منزهة زكية، والثاني بمعنى التفضيل على الغير، فذلك لم يُعدَّ الأول إلى متعلق، وعُدّي الثاني[1].

هذا الاصطفاء الإلهي الذي يعني وجود أفراد من البشر يجسدون المبادئ والقيم في حياتهم، ويبلغون مستوى الطهارة والكمال، ويكونون قدوات وهداة، لبني الإنسان على امتداد التاريخ، لم يجعله الله تعالى رتبة خاصة بالرجال دون النساء، بل اصطفى عينات من النساء كما اصطفى من الرجال، مما يدل على قابلية المرأة واهليتها لأعلى درجات الكمال، وأن تكون في موقع الريادة والاقتداء، وفي مستوى التفوق والامتياز على سائر بني البشر نساءً ورجالاً.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2].

وآل إبراهيم وآل عمران فيهم الرجال والنساء. ومن النساء اللاتي نعرفهن: سارة وهاجر زوجتا إبراهيم عليه السلام، ومن آل عمران: مريم وأمها.

كما نص القرآن الكريم على اصطفاء مريم عليها السلام.

---

(1) ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج3 ص 95 الطبعة الأولى 2000م، مؤسسة التاريخ، بيروت.

(2) سورة آل عمران الآية 33.

وحينما نزل الوحي بآية التطهير لأهل بيت رسول الله ﷺ وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1] فإنها شملت فاطمة الزهراء إلى جانب علي والحسنين عليهم السلام. يقول الشيخ ابن تيمية حول هذه الآية الكريمة: (وقد روى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن أم سلمة: أن هذه الآية لما نزلت أدار النبي ﷺ كساءه على علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا» وسنته تفسر كتاب الله وتبينه، وتدل عليه، وتعبر عنه. فلما قال: «هؤلاء أهل بيتي» مع أن سياق القرآن يدل على أن الخطاب مع أزواجه، علمنا أن أزواجه وإن كن من أهل بيته كما دل عليه القرآن، فهؤلاء أحق بأن يكونوا أهل بيته، لأن صلة النسب أقوى من صلة الصهر)[2].

وبكل وضوح يقدم القرآن الكريم المرأة المصطفاة كمثل ونموذج لجميع المؤمنين ذكوراً وإناثاً على مر العصور بقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ

---

(1) سورة الأحزاب الآية 33.
(2) ابن تيمية: تقي الدين أحمد، حقوق آل البيت ص، 25 دار الكتب العلمية، بيروت.

وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ﴾[1].

---

(1) سورة التحريم الآية 11 ـ 12.

نبوة المرأة

الرؤية الإسلامية المتميزة للمرأة، والتي تقوّم المرأة من خلال انسانيتها وقدراتها وإنجازاتها، ولا تعتبر أنوثتها معوقاً، ولا نقطة ضعف تقعد بها عن بلوغ أي مستوى من التقدم والكمال.. هذه الرؤية دفعت بعض العلماء للنقاش حول موضوع نبوّة المرأة، وأنه لا مانع من أن يمنح الله تعالى رتبة النبوة لبعض النساء، فمن الناحية العقلية حين يبحث علماء الكلام الصفات التي يجب أن تتوفر في النبي، فإنهم لا يعتبرون الذكورة شرطاً، حيث لا يمتنع عقلاً أن تكون المرأة نبية، وإذا كانت هناك آيات في القرآن تفيد أنه من الناحية الفعلية كان الرسل رجالاً كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾[1].

فإن العديد من العلماء والمفسرين قد أشاروا إلى أن

---

(1) سورة يوسف الآية 109.

المقصود بالرجولة هنا هو البشرية، في مقابل توقع البعض أن يكون الأنبياء فوق مستوى البشر كأن يكونوا ملائكة، يقول تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾[1].

قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾: (والرجال: اسم جنس جامد لا مفهوم له. وأطلق هنا مراداً به أناساً كقوله ﷺ: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» أي إنسان أو شخص فليس المراد الاحتراز عن المرأة)[2].

ويؤيد ذلك ما ورد في القرآن الكريم من استخدام كلمة (رجل) بمعنى إنسان كقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[5] وغيرها، فإن المقصود هنا بالرجل والرجال ليس الذكور في مقابل الإناث كما هو واضح.

---

(1) سورة المؤمنون الآية 24.

(2) ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير ج2 ص 127 الطبعة الأولى2000م، مؤسسة التاريخ، بيروت.

(3) سورة الأحزاب الآية 4.

(4) سورة النور الاية 37.

(5) سورة التوبة الاية 108.

وأيضاً فإن هناك من يفرّق بين الرسول والنبي، على أساس أن كل رسول مطلوب منه التبليغ والدعوة، بينما لا يلازم النبوة ذلك، وبناءً عليه فإن الآيات إنما تنفي عن النساء الرسالة، ولكنها لا تنفي النبوة، كما يذهب إلى ذلك بعض علماء أهل السنة.

يقول ابن حجر العسقلاني في فتح الباري شرح صحيح البخاري، عند شرحه لحديث رقم 3411 عنه ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران...» قال ما يلي:

(استدل بهذا الحصر على أنهما نبيتان لأن أكمل النوع الإنساني الأنبياء ثم الأولياء والصديقون والشهداء، فلو كانتا غير نبيتين للزم ألا يكون في النساء ولية ولا صديقة ولا شهيدة، والواقع أن هذه الصفات في كثير منهن موجودة فكأنه قال ولم ينبأ من النساء إلا فلانة وفلانة... وقد نقل عن الأشعري أن من النساء من نبئ وهن ست: حواء وسارة وأم موسى وهاجر وآسية ومريم، والضابط عنده أن من جاءه الملك عن الله بحكم من أمر أو نهي أو بإعلام مما سيأتي فهو نبي، وقد ثبت مجيء الملك لهؤلاء بأمور شتى من ذلك من عند الله عز وجل، ووقع التصريح بالإيحاء لبعضهن في القرآن.

وقال ابن حزم: وحجة المانعين قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً﴾[1] وهذا لا حجة فيه فإن أحداً لم يدع فيهن الرسالة، وإنما الكلام في النبوة فقط)[2].

ونقل الآلوسي البغدادي في تفسيره روح المعاني أنه: (ذهب إلى صحة نبوة النساء جماعة وصحح ذلك ابن السيد)[3].

---

(1) سورة النحل الآية 43.

(2) ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي، فتح الباري ج 6 ص443.

(3) الآلوسي: السيد محمود، روح المعاني ج 14 ص 147.

فاطمة الزهراء وأمهات المؤمنين

النصوص الواردة حول مقام فاطمة الزهراء عليها السلام تدل على أنها في موقع الريادة والحجة الشرعية على الناس رجالاً ونساءً.

إذ أن القرآن الكريم يحكم بطهارتها وانتفاء أي رجس عنها ضمن أهل البيت بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

كما أن قول رسول الله ﷺ في حقها: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها فقد أغضبني»[2] والذي رواه البخاري عن المسور بن مخرمة. وقوله ﷺ: «إن الله عز وجل ليغضب لغضب فاطمة، ويرضى لرضاها» والذي رواه الطبراني في المعجم الكبير والحاكم في المستدرك والذهبي في الميزان وغيرهم[3].

---

(1) سورة الأحزاب الآية 33.

(2) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري حديث رقم 3767.

(3) السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، مسند فاطمة الزهراء، حديث رقم 119 الطبعة الأولى 1994م، دار ابن حزم، بيروت.

وأحاديث عديدة أخرى، تقدم السيدة الزهراء كرمز وقدوة للأمة الإسلامية جمعاء، وبالطبع فإن معنى ارتباط رضى الله برضاها، وغضب الله بغضبها، يدل على عصمتها ونزاهتها وكمالها، وأن سلوكها وممارساتها، بل وحتى مشاعرها وعواطفها منسجمة مع القيم الإلهية، لا تحيد عنها قيد شعرة، وإلا فكيف يرتبط رضى الله تعالى وغضبه بمن يصح عليه الرضى والغضب النابع من الهوى والانفعال؟

وبناء على ذلك فإن ما يصدر عن السيدة الزهراء من قول أو فعل أو موقف فإنه يكون كاشفاً عن الأمر والتشريع الإلهي. فهي حجة شرعية على جميع الناس، وهي - عليها الصلاة والسلام - حجة على كل أولادها الأئمة الطاهرين عليهم السلام ولذا قال الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «وهي حجة علينا» وقال الإمام الحجة عليه السلام: «وفي ابنة رسول الله لي أسوة حسنة» وقد قال الإمام الحسين عليه السلام: «أمي خير مني»[1].

هكذا يقدم الإسلام المرأة في مقام ريادي، وموقع قيادي، ليؤكد قابليتها واستعدادها للكمال والتفوق، تماماً كما هو الحال بالنسبة للرجل.

كذلك كان لزوجات رسول الله صلى الله عليه وآله امهات المؤمنين

(1) الشيرازي: السيد محمد الحسيني، فقه الزهراء ج 1 ص 11.

موقعية خاصة لدى الصحابة والتابعين في نقل احاديث الرسول ﷺ، والإخبار عن سنته وسيرته، لقربهن من حياته الخاصة.

وبمراجعة سريعة لصحيحي البخاري ومسلم مثلاً، وهما المصدران المعتمدان عند أهل السنة والجماعة، نجد عدداً وفيراً من الروايات عن امهات المؤمنين، وخاصة أم المؤمنين عائشة بل نجد فيهما أن بعض الصحابة كانوا يرجعون إلى امهات المؤمنين في بعض ما استشكل عليهم من المسائل الدينية.

وأكثر من ذلك فإن في الصحيحين روايات تشير الى استدراك بعض امهات المؤمنين على ارآء وفتاوى بعض الصحابة جاء في صحيح مسلم عن عبيد الله بن عمير قال: بلغ عائشة أن عبدالله بن عمرو يأمر النساء اذا إغتسلن، أن ينقضن رؤوسهن.

فقالت: ياعجباً لإبن عمرو هذا! يأمر النساء اذا إغتسلن، أن ينقضن رؤوسهن، أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن! لقد كنت أغتسل انا ورسول الله ﷺ من إناء واحد، ولا أزيد على أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات.[1]

---

(1) القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، حديث رقم 331.

وقد الف بدر الدين الزركشي كتاباً بعنوان (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) أحصى فيه استدراكاتها على تسعة وخمسين مسألة، عارضت فيها ثلاثة وعشرين من أعلام الصحابة. وقال في مقدمة كتابه: (هذا كتاب أجمع فيه ما تفردت به-عائشة- (رضي الله عنها) ، او خالفت فيه سواها، برأي منها، او كان عندها فيه سنة بينة، أو زيادة علم متقنة، او انكرت فيه على علماء زمانها، او رجع فيه إليها أجلة من أعيان اوانها، او حررته من فتوى، او اجتهدت فيه من رأي رأته اقوى)[1]

(1) ابو شقة: عبدالحليم، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ج 1 ص 210، الطبعة الاولى 1990م، دار القلم، الكويت.

المرأة وقوة الشخصية

هل تحتاج المرأة إلى قوة الشخصية؟

وهل تنسجم قوة الشخصية مع طبيعتها الأنثوية الناعمة؟

أو تتناسب مع دور الأمومة العظيم الموكل إليها والذي يتطلب أعلى درجات العطف والحنان؟

لمناقشة هذا الموضوع، والإجابة على التساؤلات التي يثيرها، لابد أولاً من تحديد المقصود بقوة الشخصية.

معنى قوة الشخصية:

إننا نفرّق بين نوعين من الأجسام: جسم قوي، وجسم ضعيف، وتقاس قوة الجسم بدرجة مناعته تجاه الجراثيم والمكروبات، وتقلبات المناخ،و بمستوى أداء أجهزته وأعضائه لمهامها ووظائفها.

كما نفرّق بين نوعين من الشخصيات: شخصية قوية، وأخرى ضعيفة، ولو تأملنا الفرق بين هاتين الشخصيتين، لتبيّن لنا أن الشخصية القوية تمتاز بالسمات التالية:

1- الثقة بالنفس: فكلما كان الإنسان أكثر ثقة بنفسه كانت شخصيته أقوى، حين يدرك ما ينطوي عليه من كفاءات وقدرات، ويعرف ما يجب أن يتمتع به من حقوق وامتيازات، ويقدّر ما حباه الله تعالى من نعم، ويحترم إنجازاته ومكاسبه، فتتجلى قوة شخصيته، وثقته بنفسه.

في المقابل فإن غفلة الإنسان عن مؤهلاته، وعدم توجهه إلى ما يكتنز من طاقات، وانبهاره بما لدى الآخرين، هو الذي يفقده الثقة بنفسه، ويصيبه بضعف الشخصية.

2- التعبير عن الذات: تدور في ذهن كل إنسان آراء وتصورات، وترتسم في نفسه مشاعر وأحاسيس، تجاه أحداث أو أشخاص أو قضايا، لكن القليل من الناس هو من يعبرّ عن أفكاره وأحاسيسه في المواقف المناسبة، وتلك هي سمة من سمات قوة الشخصية.

إن الكثيرين يكتمون أراءهم، ويحبسون مشاعرهم، خجلاً من إبدائها، أو تهيّباً من عدم رضا الآخرين عنها، أو تشكيكاً منهم في قيمة ما لديهم من أفكار وانطباعات، وما إذا كانت تستحق الاهتمام أم لا؟

ويحدث أحيانا أن يضم الإنسان مجلس يُناقش فيه أمر من الأمور، ويكون له رأي في ذلك الأمر، لكنه يتردد في التعبير عنه، ثم يُفاجأ بطرح نفس الرأي من شخص آخر، واهتمام

الحاضرين به، فيأسف لتفويته الفرصة على نفسه.

وقد يستمع الإنسان لخطيبٍ أو متحدثٍ حول موضوع ما، وتكون لديه مناقشة أو نقد أو تساؤل، لكنه لا يجرؤ على الطرح، فإذاما خرج من المكان، رفع صوته معترضاً منتقدا.

والبعض من الناس يصعب عليه التعبير عن مشاعر الارتياح والرضا حتى أمام القريبين منه، فلا يقدم الشكر لزوجته، ولا يبدي التقدير لولده، ولا يثني على جهود زميله، في مواقف وتجاه خدمات تملأ نفسه بالراحة والإعجاب. وهو مؤشر واضح على ضعف الشخصية.

3- الدفاع عن المصالح: يتحمل الإنسان مسؤولية الدفاع عن ذاته، وحماية مصالحه وحقوقه المشروعة، فكما لا يجوز له الاعتداء على حقوق الآخرين، كذلك لا يصح له التفريط بحقوقه، وتضييع مصالحه، ورد في أحد الأدعية المأثورة: «اللهم إني أعوذ بك أن أَظِلمَ أو أُظلم، أو أعتدي أو يُعتدى عليّ».

إن البعض من الناس تتعرض مصالحه للخطر، ويُعتدى على حقوقه، فيتألم ويتأذى، لكن دون أن يتخذ أي موقف للدفاع عن الذات، أو لحماية المصالح والحقوق، لشعوره بالعجز والضعف، وحتى في المواقف البسيطة، والحالات العادية، كالبيع والشراء، وأمور الخدمات، فيبيع شيئاً او

يشتري شيئاً بثمن معين، ثم يتأسف لأنه إنما قبل خجلاً من فلان، أو تحت إلحاح فلان!

إنه يتحمل التزامات ترهقه، أو يتنازل عن مصالح تهمه لأن أحداً قد طلب منه ذلك و ألح عليه، بدافع الحياء أو الخجل أو الإحراج، مع عدم اقتناعه ورضاه، وقد تسمع من يقول ما كنت أرغب في هذا الأمر لكن ماذا أصنع وقد ضغط علي فلان؟

بالطبع لا مانع من التسامح مع الآخرين،وتقديم التنازلات، إذا كان ذلك بقرار واختيار ذاتي، وعن قناعة ورضى، بل هو أمر مطلوب ومرغوب.

أما أن يستجيب الإنسان ويتنازل من منطلق الشعور بالعجز والخجل، والتساهل بحقوقه، فذلك دليل ضعف الشخصية واهتزازها.

لذلك يروي الحسين عن أبيه عن جده رسول الله ﷺ أنه قال: «المغبون لا محمود ولا مأجور»[1] فالذي يفرّط في حقوقه ومصالحه، ويتيح الفرصة لتلاعب الآخرين عليه، هذا لا يجعله في موقع التقدير والاحترام، ولا يكسبه الأجر من الله.

---

(1) القرشي: باقر شريف/ حياة الإمام الحسين ج1 ص138.

شخصية المرأة

ربما يُفضّل أغلب الرجال لو خيّر بين امرأة قوية الشخصية، وأخرى ضعيفة الشخصية، لاختار النمط الثاني، لأنه يريد امرأة تعطيه الفرصة أكثر لممارسة سلطته عليها، وتكون خاضعة له بشكل تام، دون أي مناقشة أو اعتراض.

وربما ناقش كثيرون في مدى تناسب صفة قوة الشخصية مع طبيعة المرأة، ومهامها الأساسية في الحياة الاجتماعية؟

فهي يجب أن تكون زوجة متوافقة مع زوجها، خاضعة لقيمومته عليها، وأن تكون أُماً تفيض على أبنائها العطف والحنان، وتغمرهم بالحب والرأفة.

وإذا كان الرجل يحتاج إلى قوة الشخصية لمواجهة أزمات الحياة ومشاكلها، فإن المرأة تحت حماية الرجل، وهو الذي يدرأ عنها المصاعب والأخطار.

لكن هذا الطرح فيه تسطيح لدور المرأة، وتجاهل

لمقومات إنسانيتها، فهي إنسان أولاً وقبل كل شيء، حباها الله تعالى كل الاستعدادات والمؤهلات الخيّرة، لكي تنطلق بها في إنسانيتها، تماماً كالرجل.

وقوة الشخصية سمة تقدم، وضمانة نجاح للإنسان في هذه الحياة، بشقيه الذكر والأنثى.

ويمكننا أن نتلّمس بعض موارد الأهمية لهذه الصفة في حياة المرأة، وانعكاسها على أداء دورها الاجتماعي بشكل أفضل و أتقن، في أكثر من بعد وجانب من جوانب الحياة.

مواجهة التحديات

تتعرض المرأة كالرجل لألوان من المصاعب والتحديات في هذه الحياة، وعليها أن تواجهها مباشرة، فحماية الرجل لا تتوفر لها ولا تنفعها دائماً، وقوة الشخصية هي السلاح النافع في ظروف التحديات والمواجهة.

فماذا تصنع المرأة إذا تعرضت لعدوان، ولم يكن إلى جانبها رجل؟ هل تخضع له وترفع راية الاستسلام؟

ثم ماذا لو كان مصدر العدوان عليها من قبل المسؤول عن حمايتها؟ وهذا ما قد يحدث أحيانا، فهل تستطيع الدفاع عن حقوقها بشخصية ضعيفة خانعة؟

وحينما يتعرض دينها ومجتمعها للخطر، هل يمكنها الإسهام في معركة الدفاع عن الدين والوطن، إن لم تتصف بالقوة والصلابة في شخصيتها؟

لقد أشار الفقهاء إلى أن بعض حالات الجهاد قد توجب على المرأة المشاركة في ميادين القتال.

وتحدث التاريخ الإسلامي عن مواقف بطولية سجلتها المرأة المسلمة في ساحة المعركة والجهاد، كموقف أُم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية، والتي شهدت معركة أحد، والحديبية، وحنيناً، وحرب اليمامة ضد مسيلمة الكذاب، وقطعت يدها في حرب اليمامة، وحينما حلّت الانتكاسة بالجيش الإسلامي في معركة أحد، وانهزم الرجال، ولم يبق مع الرسول ﷺ إلا نفر قليل، كانت نسيبة في مقدمة المدافعين عن رسول الله ﷺ، حتى أصيبت باثني عشر جرحاً، وقال عنها رسول الله ﷺ مشيداً ببسالتها وقوة شخصيتها: «ما التفت يميناً وشمالاً يوم أحد إلا و رأيتها تقاتل دوني»[1]

مثل هذا الموقف البطولي لا يصدر إلا من شخصية قوية متماسكة.

إن المرأة القوية الشخصية قد تلعب دوراً في حماية الرجل في المواقف الصعبة، ولا تحمي نفسها فقط، ألم يقل رسول الله ﷺ عن زوجته خديجة بنت خويلد: «آمنت إذ كفر الناس، وصدقتني وكذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس»؟ قال أبو إسحاق: كانت خديجة أول من آمن بالله

---

(1) باشميل: محمد أحمد/ موسوعة الغزوات الكبرى ـ أُحد ص153/ الطبعة الثامنة 1985م مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة.

ورسوله، وصدّق بما جاء به، فخفف الله بذلك عن رسول الله ﷺ، لا يسمع شيئاً يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه إلا فرّج الله عنه بها، إذا رجع إليها تُثبتّه وتخفف عنه، وتصدقه، وتهوّن عليه أمر الناس، رضى الله عنها.(1)

وكذلك دافعت فاطمة الزهراء عليها السلام عن حقها في إرث ابيها ونحلتها «فدك» وعن حق علي بن ابي طالب في الخلافة، ووقفت زينب بنت علي إلى جانب أخيها الحسين في نهضته... وفي التاريخ الماضي والحاضر شواهد كثيرة عن بطولات النساء، ودفاعهن عن قضايا مجتمعاتهن العادلة والمشروعة.

---

(1) ابن الاثير: علي بن محمد الجزري/ أسد الغابة في معرفة الصحابة ج7 ص83 ـ 86 / دار الكتب العلمية ـ بيروت.

من أجل تربية سليمة

نريد لأبنائنا أن يكونوا أقوياء في شخصياتهم، وهم يتربون في أحضان و حجور أمهاتهم، فإذا كانت الأم ضعيفة الشخصية هل تستطيع أن تربّي أبناءها على الشجاعة والإقدام؟

ينقل عن الإمام علي عليه السلام أنه أمر ابنه محمد بن الحنفية بالهجوم، وكان حامل اللواء في حرب الجمل، فأجهز على العدو، لكن ضربات الأسنّة، و رشقات السهام منعته من التقدم، فتوقف قليلا، وسرعان ما وصل إليه الإمام، وقال له احمل بين الأسنّة. فتقدم قليلاً تم توّقف ثانية، فتأثر الإمام من ضعف ابنه بشدة، وصاح به: «أدركك عِرْق من أُمّك»[1]

إن الارتباط الوثيق بين الأم والولد، في السنوات التأسيسية التي تتشكل فيها نفسيته، يجعل تأثير الأم في تكوين

---

(1) فلسفي: محمد تقي/ الطفل بين الوراثة والتربية ج1 ص61 الطبعة الثانية 1992م ـ مؤسسة الأعلمي ـ بيروت.

شخصيته كبيراً، فإذا كانت تمتلك قوة الشخصية، فستغرس هذه الصفة في أبنائها، وعلى العكس من ذلك، قد تربيهم على الضعف والخنوع حين تكون مهزوزة الثقة بنفسها.

أمام الإغواء والإغراء

تتعرض المرأة وخاصة في الحياة المعاصرة للكثير من محاولات الإغواء والإغراء، حيث تمتلئ الأجواء العامة بوسائل الإثارة والتحريض للشهوات والغرائز، فيندفع المستجيبون لهذه الإثارات بحثاً عن فرص لإشباع غرائزهم المتحفِّزة، ويستخدمون مختلف أساليب الإغواء والإغراء للإيقاع بضحاياهم من النساء والفتيات في شباك أهوائهم الطائشة، وتدفع المرأة الضحية ثمناً باهضاً من مستقبلها الحياتي، ووضعها الاجتماعي، بينما يخرج الرجل بأقل قدر من الخسارة والضرر.

وعلى مستوى كل المجتمعات البشرية المعاصرة تتعرض المرأة لحالات كثيرة من التحرش والاعتداء والاغتصاب.

وحتى في مجتمعاتنا المحافظة أصبحنا نواجه اختراقاً حاداً لأمننا الاجتماعي والأخلاقي، عبر وسائل الاتصال الحديثة كالتليفون والإنترنت، وعبر محاولات استدراج الفتيات بالكلام

المعسول، والوعود البراقة، وفي بعض الأحيان بوسائل الابتزاز الرخيصة. . .

إن القوانين الرادعة، والأعراف الاجتماعية، ما عادت كافية للوقوف أمام تأثيرات هذه الأجواء المفتوحة، وأساليب الإغواء والإغراء المكثفة، والحصانة الأفضل، تكمن في قوة شخصية المرأة، فالمرأة الناضجة، الواثقة من نفسها، الجريئة في الدفاع عن مصالحها، هي التي تستعصي على محاولات الإغراء، ووسائل الابتزاز.

إن ملاحظة فاحصة لأغلب ضحايا حالات الإغراء والإغواء من الفتيات، تكشف أن ضعف الشخصية هو الثغرة الكبيرة التي ينفذ منها المغرضون، فالبنت التي تُسحق شخصيتها وسط العائلة، والفتاة التي تعيش خواءً وفراغاً نفسياً، والمرأة التي تصادر حقوقها من قبل زوجها، قد تصبح فريسة سهلة للمنحرفين والعابثين.

النجاح في العلاقات

قوة الشخصية وما ينبثق عنها من صفات الثقة بالنفس، والتعبير عن الذات، والسعي للدفاع عن المصالح، تجعل الإنسان أقدر على النجاح في علاقاته مع الآخرين، فهو يعيش الاستقرار النفسي، والوضوح في التعامل، وبذلك يعرف حدود مصالحه ومصالح الآخرين، كما يسهل على الآخرين إدراك توجهاته ومتطلباته.

والمرأة القوية الشخصية تريح زوجها وعائلتها، وتحمل عنهم الكثير من أعباء حياتها وشؤونها، وتكسب ثقتهم واعتمادهم.

وشتان بين صنفين من النساء: امرأة تدير شؤون بيتها ونفسها بثقة واقتدار، وتترك لزوجها مالا تستطيع من الأعمال والمهام، وأخرى تهتز أمام أي مشكلة، وتخاف من التعامل مع أي جهة أو موضوع، ولا تكاد تقوم بأي مهمة خارج ما ألفته دون وجود رجل معها.

إن التاريخ يحدثنا عن نساء عظيمات، نجحن في تحمل أعباء قيادية على صعيد مجتمعاتهن، وعن نساءٍ كنَّ مرجعية في أوساط أهاليهن و عوائلهن، يلجأ إلى رأيهن في الأزمات، ويعتمد عليهن في معالجة المشكلات. وفي عصرنا الحاضر نماذج كثيرة من هذا القبيل.

بينما نجد الغالبية من النساء في مجتمعاتنا يعانين من ضعف شديد في شخصياتهن، بحيث يفشلن في حياتهن، وفي بناء علاقاتهن مع المحيطين.

وإذا كان بعض الرجال يستصعب السيطرة على المرأة القوية الشخصية، فإن عليه أن يعيد النظر في أسلوب تعامله، وطريقة تعاطيه، وأن يدرك أن العلاقة الزوجية الناجحة لا تتم بأسلوب الفرض والسيطرة، و إنما بالفهم والتفاهم، والاحترام للحقوق المتبادلة.

وإيجابيات قوة شخصية المرأة أهم وأكبر مما قد يبدو للرجل من سلبياتها وإشكالياتها.

بين الحياء وقوة الشخصية

إذا كان مطلوباً أن تتحلّى المرأة بقوة الشخصية فأين موقعية صفة الحياء إذاً؟

أليس هناك تناقض بين الصفتين بما تعنيه الأولى من جرأة وإقدام، وما تستلزمه الأخرى من تحفّظ وهدوء؟

إن الحياء صفة إيجابية حسنة للرجال والنساء، حتى ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن لكل دين خُلُقاً وإن خُلُق الإسلام الحياء» عن أنس وابن عباس[1] وفي حديث آخر عنه ﷺ: «إن الحياء من الإيمان» عن ابن عمر[2] وعنه ﷺ: «الحياء زينة»[3]. ويروى عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «أحسن ملابس الدنيا الحياء»[4]

---

(1) الهندي: علي المتقي/ كنز العمال ـ حديث رقم 5757.
(2) المصدر السابق ـ حديث رقم 5767.
(3) البخاري: محمد بن اسماعيل/ صحيح البخاري ـ حديث رقم 6118.
(4) الآمدي التميمي: عبدالواحد / غرر الحكم ودور الكلم.

وتأخذ صفة الحياء أهمية أكبر بالنسبة للمرأة، فهي تصونها عن الابتذال، وتجعلها أكثر رزانة وانضباطا، وأبعد عن مواقع الفتنة والإثارة، يقول الإمام علي عليه السلام: «على قدر الحياء تكون العفة»[1]

وملحوظ أن المرأة بطبيعتها أكثر نزوعاً إلى الحياء من الرجل، فرغم أن اندفاعاتها الغريزية الجنسية لا تقل عن الرجل، إلاّ أنها أفضل تحكماً وانضباطاً منه. حتى ورد في حديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الحياء عشرة أجزاء فتسعة في النساء وواحد في الرجال»[2]

ويُضرب المثل بين الرجال عادة بحياء المرأة، فإذا أُريد المبالغة في نعت رجل بالحياء، يقال إنه أحيا من فتاة. وهكذا تحدث الأصحاب عن شخصية رسول الله ﷺ كما عن أبي سعيد الخدري: «كان النبي ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها»[3]

وكان مألوفاً في المجتمع أن تلوذ الفتاة بالصمت، حينما تُسأل عن رأيها في الزواج ممن تقدم لخطبتها، حياءً وخجلا،

---

(1) المصدر السابق

(2) الهندي: علي المتقي/ كنز العمال ـ حديث رقم 5769

(3) البخاري: محمد بن إسماعيل/ صحيح البخاري ـ حديث رقم6119.

فاعتبر الشرع سكوتها دليلاً على رضاها، لأن إبداء الرفض لا يستلزم حياءً.

تأسيساً على ما سبق لماذا التأكيد على قوة الشخصية لدى المرأة، إذا كان ذلك على حساب صفة الحياء المطلوبة في شخصيتها؟

معنى الحياء

عرّف الراغب الاصفهاني في مفرداته الحياءَ بقوله: الحياء انقباض النفس عن القبائح وتركها. وعَرفه آخرون بأنه: الترقّي عن المساوئ خوف الذم.

وقد ورد عن الإمام علي عليه السلام قوله: «الحياء يَصدُّ عن الفعل القبيح»[1]

فهو رادع ذاتي داخلي يمتنع به الإنسان من ارتكاب المعايب، التي نهى عنها الشرع أو العقل أو العرف. وهو بهذا المعنى لا يتصادم ولا يتناقض مع قوة الشخصية، لأن قوة الشخصية لا تعني الجرأة على المساوئ والمعايب، بل تعني الثقة بالنفس والتعبير عن الذات والدفاع عن الحقوق والمصالح، وكل ذلك في الإطار الصحيح، وبالأساليب اللائقة السليمة.

---

(1) الآمدي التميمي: غرر الحكم ودرر الكلم.

إن الحياء كأي مَلَكة من الملكات الفاضلة، والصفات الطيبة، لها موقعها المناسب، ومكانها الصحيح، في شخصية الإنسان وحياته، و إذا ما استخدمت في موقعها المطلوب، فإنها لا تلغي ولا تناقض المكارم الأخرى.

وما قد يبدو من تناقض بين بعض مفردات مكارم الأخلاق، كالحزم واللين، والشجاعة والعفو، والعزة والتواضع، يزول بالنظر إلى اختلاف الموارد. لقد وصف الله تعالى صحابة الرسول ﷺ بأنهم أشدّاء ورحماء، وبين الصفتين تناقض، لكنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1] ومدح تعالى المؤمنين بأنهم اعزة واذلة، والتناقض واضح بين الصفتين لكنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2].

إن الإفراط في ممارسة الحياء، واستخدامه في غير موضعه، ليس حالة صحيحة، ولا تدخل ضمن الحياء المحبّذ والمطلوب. بل تعبرّ عنها النصوص الشرعية بأنها سمة ضعف، ومؤشر حماقة وجهل. جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «الحياء حياءان: حياء عقل، وحياء حمق، فحياء العقل هو العلم، وحياء الحمق هو الجهل»[3].

---

(1) سورة الفتح آيه 29.
(2) سورة المائدة آيه 54.
(3) الكليني: محمد بن يعقوب/ الكافي ج2 ص106.

ويعلّق الشيخ المجلسي على هذا الحديث بقوله: يدل على انقسام الحياء إلى قسمين: ممدوح ومذموم، فأما الممدوح فهو حياء ناشئ عن العقل، بأن يكون حياؤه وانقباض نفسه عن أمر يحكم العقل الصحيح، أو الشرع بقبحه، كالحياء عن المعاصي أو المكروهات. وأما المذموم فهو الحياء الناشئ عن الحمق، بأن يستحي عن أمر يستقبحه أهل العرف من العوامّ، وليست له قباحة واقعية، يحكم بها العقل الصحيح، والشرع الصريح، كالاستحياء عن سؤال المسائل العلمية، أو الإتيان بالعبادات الشرعية، التي يستقبحها الجهال. ((فحياء العقل هو العلم)) أي موجب لوفور العلم، أو سببه العلم المميّز بين الحسن والقبح، وحياء الحمق سببه الجهل وعدم التميز المذكور، أو موجب للجهل.[1]

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «الحياء على وجهين فمنه ضعف ومنه قوة»[2] إن استخدام الحياء في غير موقعه المناسب، حالة مرضية، تنبثق من ضعف شخصية الإنسان، وتؤدي إلى تخلفه وحرمانه. وهو ما يعنيه الإمام علي عليه السلام بقوله: «قُرن الحياء بالحرمان»[3] وقوله عليه السلام: «الحياء يمنع

---

(1) المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار ج68 ص331.
(2) المصدر السابق ج75 ص242.
(3) الآمدي التميمي: عبد الواحد/ غرر الحكم ودرر الكلم

الرزق»[1] وقوله عليه السلام: «من استحيا من قول الحق فهو الأحمق»[2] وقوله عليه السلام: «ولا يستحيّن أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه»[3]

فالحياء ليس صفة مطلوبة في المطلق، بل يسَتحسن في موارده الصحيحة، ويكره حينما يكون على حساب مصالح الإنسان المشروعة.

اتضح إذاً أن لا تناقض ولا تصادم بين التأكيد على قوة شخصية المرأة، وبين اتصافها بفضيلة الحياء، فالحياء الحسن المطلوب للمرأة، هو ما يسمو بها عن الابتذال، وما يرفعها عن مساوئ وقبائح الأفعال، وذلك لا يعني فقدان الثقة بالنفس، ولا العجز في التعبير عن الذات، ولا يمنع الدفاع عن حقوقها ومصالحها المشروعة.

---

(1) المصدر السابق

(2) المصدر السابق.

(3) الموسوي: الشريف الرضي/ نهج البلاغة ـ قصار الحكم 82

غلو وتشدّد

يغالي البعض ويتشدد في مسألة حياء المرأة، فيفرض عليها ألواناً من الحياء المذموم، الذي يشلّ عضويتها في المجتمع، ويجمّد طاقاتها وقدرتها، ويمنعها من التفاعل مع قضايا الحياة، فتصبح تحت شعار الحياء والعفة موجوداً هامشياً دونياً، لا رأي لها ولا فاعلية ولا شخصية.

فعليها أن تبقى سجينة البيت، لا تخرج منه إلا إلى القبر، فقد صرح بعضهم بأن لا تخرج المرأة إلاّثلاث مرات: من بطن أمها الى العالم، ومن بيت أبيها الى الزوج، ومن بيت زوجها إلى القبر. كما نقل ذلك الشيخ الغزالي.[1]

وعليها أن لا تتحدث مع رجل أجنبي لأن صوتها عورة. وهي عبارة شائعة في أوساط المتدينين، ولا أصل لها في الشرع، يقول السيد الخوئي: ((فهي وإن كانت كلمة مشهورة بينهم إلا أنها لم ترد في شيء من النصوص، فلا وجه لجعلها

---

(1) أبو شقة: عبد الحليم/ تحرير المرأة ج1 ص5.

دليلا. . مضافاً إلى السيرة القطعية المتصلة بزمان المعصوم ﷺ حيث كانت النساء تتكلم مع الرجال، من دون تقيّد بحالة الضرورة)).[1]

وعليها أن تختبئ عن الرجال فلا تنظر إلى أحد، ولا ينظر إليها أحد، وينقلون رواية مرسلة عن فاطمة الزهراء ﷺ أنها قالت لأبيها رسول الله ﷺ، حينما سألها عن خير شيء للمرأة؟ أنها قالت: «خير للنساء أن لا يرين الرجال ولا يراهن الرجال» وهي مرسلة وغير مقبولة من ناحية السند عند السنة والشيعة. كما نصّ على ذلك السيد الخوئي[2] والحافظ العراقي.[3]

وقبل فترة قرأت لأحد كبار العلماء، كلمة يتحدث فيها عن فضيلة الحياء للمرأة، بنظرة فيها الكثير من الغلو والتشدد، يقول ما نصه: ((إن المرأة التي تربّت على الإسلام في المجتمعات المحافظة، تتسم حياتها بالحياء، وعندما يخاطبها الرجل لا تكاد تسمع كلامها حياءً أن ترفع صوتها، بل ربما بعضهن تتكلم وهي ترتجف، وبعضهن لا تستطيع أن تنطق، وبعضهن يعلوها نوع من الرحضاء، واحمرار الوجه، وغير

---

(1) الخوئي: السيد أبو القاسم/ مباني العروة الوثقى ـ كتاب النكاح ج1 ص100.

(2) المصدر السابق ص53.

(3) ابو شقة: عبد الحليم/ تحرير المرأة ج3 ص39.

ذلك من الأحوال التي تكون عند المرأة عندما يكلمها الرجل، والمرأة المحافظة هي المرأة التي عاشت وتربت في الإسلام، وسمعت القرآن، وتأدبت بآداب الإسلام، عندما يكلمها الرجل فإنها تكون منها هذه الأحوال، وبخاصة إذا كان الكلام من كلام الرفث والفسوق ونحو ذلك)).[1]

إن مثل هذا الغلو والتشدد، فيه تضييق كبير على حرية المرأة وحقوقها المشروعة، وإضعاف لشخصيتها، ومصادرة لدورها الاجتماعي، وحينما ينسب إلى الإسلام فهو تشويه لصورته المشرقة، ودافع لردة فعل تجاهه، تجعل بنات المسلمين هدفاً سهلاً للتيارات المنحرفة، وأنماط السلوك الوافدة. ومن يقرأ عن حياة المرأة ودورها في العهد الإسلامي الأول، وكيف كانت تشارك في خدمة المجتمع، وتسهم في بناء الكيان الإسلامي، وتتمتع بشخصية قوية، وحضور فعال، منذ بداية الدعوة ممثلة في السيدة خديجة أم المؤمنين، ثم السابقات إلى الإسلام، اللاتي هاجرن إلى الحبشة و إلى المدينة، وبايعن رسول الله ﷺ، وحضرن المعارك والغزوات، و واظبن على صلاة الجماعة مع رسول الله ﷺ، وحفظن حديثه، وكنّ بعده راويات للحديث، ومتحدثات للرجال بما وعينَ وحفظن.

(1) المسلمون: جريدة ـ لندن/ عدد (542) 25 محرم 1416هـ.

من يقرأ تلك الصور الزاهية، والمواقف البطولية الرائعة للمرأة، التي سجلها القرآن الكريم، وسجلتها أحاديث السنة والسيرة النبوية، وتاريخ المسلمين، يكتشف أن نظرة الغلو والتشدد تجاه المرأة، ناتجة عن تخلف الأمة، والابتعاد عن مفاهيم الإسلام النقية، والأخذ بالأعراف والتقاليد المتخلفة.

إن الحياء مطلوب من المرأة في حدود صيانة شخصيتها عن الابتذال، وحفظ عفافها وكرامتها عن الضياع، بالتزامها بأحكام الشرع وتعاليم الدين.

إن القرآن الكريم يحدثنا عن ابنتي نبي الله شعيب، وما يتمتعان به من خلق الحياء ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾[1] والاستحياء مبالغة في الحياء. لكن حياءهما الشديد لم يكن مانعاً لهما من القيام برعاية أغنام أبيهما رعياً وسقاية، مع ما يستلزمه من اختلاط واقتراب من الرجال الأجانب ولو بدرجة محدودة، وحينما كلمهما موسى عليه السلام، وهو شاب أجنبي لم تترددا في الإجابة على سؤاله يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[2].

---

(1) سورة القصص آية 25.
(2) سورة القصص آية 23.

وقد أرسل نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ إحدى ابنتيه لتوجه الدعوة إلى موسى ليأتي منزلهم، فأرسلها وحدها، ولم تتلكأ في تقديم الدعوة إلى ذلك الشاب الأجنبي: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.[1]

ولم يمنعها الحياء واحترام مقام أبيها من أن تقترح عليه وبعبارة الأمر والطلب، أن يستأجر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مبدية إعجابها بأمانة ذلك الشاب وقوته: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾.[2]

هكذا يعلمنا القرآن أن الحياء - ومهما كان شديداً - لا يمنع المرأة من الاتصاف بقوة الشخصية، وممارسة دورها الاجتماعي الفاعل.

---

(1) سورة القصص آية 25.
(2) سورة القصص آيه 26.

مصادر قوة الشخصية

كيف تُبنى شخصية المرأة قوية ثابتة، تستعصي على الإغواء والإغراء، وتشق طريقها في الحياة بثقة والتزام، وتؤدي واجباتها الدينية والاجتماعية على خير وجه؟

وكيف تتجاوز المرأة في مجتمعاتنا حالة الضعف والشعور بالدونية تجاه الرجل، مما يجعلها عاجزة عن تسيير أبسط شؤون حياتها، والدفاع عن حقوقها ومصالحها؟

يبدو أن هناك عدة عوامل ومصادر تساعد على بناء وتنمية قوة الشخصية لدى المرأة، من أهمها مايلي:

1 - التربية السليمة: فالبنت التي تنشأ في أجواء تربوية صالحة، وتتوفر لها رعاية كافية، تلبّي جميع احتياجاتها المادية والنفسية والروحية، وتغرس في شخصيتها بذور الخلق القويم، عبر التوجيه المناسب، والقدوة الصالحة، المتمثلة في

سلوك الوالدين. هذه البنت تكون مهيأة للاستقامة، جديرة بامتلاك قوة الشخصية.

2 - الوعي بالدين والحياة: غالباً ما يتشكل وعي الفتاة في مجتمعاتنا، من خلال الموروثات والأعراف المتداولة في أوساط عوائلهن، ثم ينفتحن على وسائل الإعلام والاتصالات الحديثة، كقنوات البث الفضائي، وشبكة الإنترنت، لتنقلهن إلى عالم آخر من الأفكار وأنماط السلوك، المخالفة لنظام قيمنا الدينية والاجتماعية.

وهنا يحصل الاختلال في التوازن لدى الفتاة، وتصبح عرضة للضياع الفكري والسلوكي، بسبب غياب برامج التوعية الدينية التي تخاطب الفتاة بلغة عصرها، وتتفّهم طبيعة المشاكل والتحديات التي تواجهها، فبرامج التوجيه الديني - إن توفرت - هي للذكور غالباً، وحظ المجتمع النسائي منها قليل، وهذا القليل تشوبه ثغرات ونواقص كثيرة.

فحتى المسائل الفقهية المرتبطة بقضايا المرأة الخاصة لم تكتب لها بلغة ميسّرة، وأسلوب واضح، حيث لا تطور في الرسائل العملية الفقهية، إلا من خلال بعض المحاولات المحدودة.

وكذلك ما تواجهه الفتاة من تحديات في حياتها الاجتماعية، فترة المراهقة، وعند بدء حياتها الزوجية، وحينما

تدخل مرحلة الأمومة. إنها بحاجة إلى مساعدتها بالثقافة الهادفة، وتقديم التجارب والخبرات النافعة، لتكون على بصيرة من أمرها، حين تواجهها المشاكل والتحديات.

إن بعض الفتيات يقعن في أخطاء فادحة، ويعثرن عثرات خطيرة، لأنهن لم يتوفرن على الوعي والتوجيه اللازم للتحولات التي واجهنها في حياتهن.

لقد وصلتني قبل فترة رسالة من إحدى الفتيات، تتحدث فيها عن المفاجآت التي واجهتها حينما التحقت بالجامعة، بعيداً عن حياتها العائلية المألوفة، فخلال ثمانية عشر عاماً، حتى تخرجت من الثانوية، كانت تعيش مع أهلها، وفجأة وجدت نفسها في منطقة بعيدة، وضمن تجمّع سكني يضم عشرات أو مئات الفتيات، من بيئات مختلفة، وصارت تتعامل بشكل أو آخر مع رجال أجانب، من خلال مواصلات السفر، وقضايا السكن، وشؤون الدراسة، وتعرضت لمحاولات من الإغواء والإغراء، ولم تكن مهيأة نفسياً ولا فكرياً للتعاطي مع مثل هذه التحوّلات والتحديات!!

إن الجيل الناشئ من أولادنا وبناتنا - على الخصوص - في حاجة ماسة للوعي الحياتي، حتى لا تلتبس عليهم الأمور، ولا تفاجئهم الإشكاليات، وحتى يكون تعاملهم مع وسائل الإعلام، وأجهزة الاتصال الحديثة، وأجواء الاحتكاك

بالآخرين، ضمن إطار من الفهم والإدراك السليم.

3 - الاحترام والإشباع العاطفي: تمتاز المرأة برقة عواطفها، ورهافة مشاعرها وأحاسيسها، منذ فترة الطفولة، فتحتاج إلى دفء عاطفي، وإحاطة بالرعاية والاحترام، لتشعر بقيمتها في وسط عائلتها، وتنهل من فيض حنانهم وعطفهم، فتمتلئ نفسها بالثقة والعزة، وتتعامل مع الآخرين من موقع الثبات والرزانة.

أما إذا عاشت حالة من الإهمال والتجاهل وسط عائلتها، ولم تُحترم مشاعرها وأحاسيسها، فسيدفعها ذلك للبحث عن مصادر أخرى تشبع جوعها العاطفي، وتغذّي الجفاء الذي تعاني منه، مما يجعلها فريسة سهلة، ولقمة سائغة، للطامعين والمنحرفين. وكم من فتاة وقعت في مهاوي الخطأ، وفخاخ المجرمين، منخدعة بالكلام المعسول، والوعود البراقة، وإبداء المشاعر الزائفة؟ ولو كانت عواطفها مشبعة، وشخصيتها محترمة، ونفسها قوية ناضجة، لكانت أوعى أذكى من الانخداع والاستدراج.

وفي تراثنا الديني نصوص وتعاليم كثيرة تؤكد على إغداق المزيد من العطف، على البنت في صغرها، وتوفير أكبر قدر من الاحترام للفتاة، والمرأة حين تكون زوجة، وحين تصبح أُماً. لاستحقاقها لذلك، ولما له من دور في بناء شخصيتها

القوية الثابتة. وفيما يلي بعض النماذج من تلك النصوص:

1 - عن حذيفة اليماني قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أولادكم البنات».[1]

2 - عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، وجبت له الجنة. فقيل يا رسول الله: واثنتين؟ فقال: واثنتين؟. فقيل: يا رسول الله وواحدة؟ فقال: وواحدة».[2]

---

(1) المجلسي: محمد باقر / بحار الانوار ج101 ص91.

(2) المصدر السابق ص92.

المرأة إذ تطالب بحقوقها

غالباً ما يكون اختلال موازين القوة بين الناس سبباً لحدوث العدوان والظلم، فالأقوياء يدفعهم غرورهم وطمعهم للاعتداء على الضعفاء.

لذلك تجتهد الشرائع والأنظمة في خلق قوة قانونية تنتصر للضعيف وتحمي حقوقه من بطش القوي.

لكن قوة القانون هذه على فرض وجودها لا تتحرك ذاتياً وبشكل آلي، لحماية أي حق ينتهك، بل تحتاج إلى إثارة واستنهاض، يضعها في موقع الحاجة لدورها.

وهنا يأتي دور المستضعف نفسه في أن يكون واعياً بحقوقه، مطالباً بها، مناضلاً من أجل حمايتها.

إن الكثيرين من الناس يجهلون ما لهم من حقوق بحسب إنسانيتهم، أو بحسب الموقع الذي يعيشونه في محيطهم، وهذا الجهل هو أرضية سكوتهم على الظلم، وتكيفّهم مع ما يقع عليهم من عدوان مادي أو معنوي.

وقسم من الناس يدركون حقوقهم، ويتألمون لمصادرتها أو الانتقاص منها، لكنهم لا يجرؤون على المطالبة بها أو الدفاع عنها.

تربية الإسلام:

والإسلام الذي جاء لإعزاز الإنسان وإسعاده، ورفع شعار تكريمه وتبجيله، اعتمد منهجية البناء الذاتي للإنسان على أساس الوعي بمكانته وحقوقه، والثقة بالنفس في الدفاع عن مصالحه ومكاسبه.

وما آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن الإنسان كخليفة لله في الأرض، وكسيّد سخر الله تعالى له ما في الكون والحياة، وكمخلوق مميز في قدراته وطاقاته، وكملك نافذ الأمر تتحقق له كل رغباته وشهواته في الجنة حينما يدخلها. ما هذه الآيات إلا تأسيس لوعي الإنسان بذاته، وإدراكه لقيمته ودوره.

ثم إن التشريعات الإسلامية، والتي ينبغي أن يفقهها الإنسان، ما هي إلا برامج وأحكام، تحدّد ما له وما عليه، وتبصّره بواجباته وحقوقه، وتضع الحدود والضوابط لردع أي ظلم أو اعتداء عليه.

ولا تقف منهجية الإسلام عند حد توعية الإنسان بذاته،

وتشريع القوانين الحامية لحقوقه، بل توجهه التعاليم الإسلامية إلى ضرورة تمسكه بحقوقه، وحفاظه عليها، ودفاعه دونها.

فمن الصفات التي يركز عليها القرآن للمؤمنين أنهم ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾[1]

وفي آية أخرى، يشيد القرآن الكريم بانتصار المؤمنين لحقوقهم، ودفعهم الظلم عن أنفسهم، يقول تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾[2]

وعبر فقرات الدعاء والمناجاة يغرس الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في نفسية الإنسان المؤمن وذهنيته طموح الكرامة والعزة، وامتلاك القدرة والجرأة، للدفاع عن الذات والحقوق، يقول عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق: «اللهم صل على محمد وآله، واجعل لي يداً على من ظلمني، ولساناً على من خاصمني، وظفراً بمن عاندني، وهب لي مكراً على من كايدني، وقدرة على من اضطهدني، وتكذيباً لمن قصبني، وسلامة ممن توعدني»[3]

وحينما يشجع الإسلام الإنسان على المطالبة بحقوقه

---

(1) سورة الشورى الآية 39.
(2) سورة الشعراء الآية 227.
(3) الصحيفة السجادية، دعاء مكارم الأخلاق.

والدفاع عنها، وعدم السكوت على الظلم والعدوان، فإنه يستهدف عدم إتاحة الفرصة للظالمين المعتدين، والذين إذا لم يُواجهوا ويُردعوا فسيستمرون في ممارساتهم العدوانية.

أما الدعوة إلى الصفح والعفو والتسامح فهي أخلاقيات يأمر بها الإسلام ويشجّع عليها، لكنها لا تعني السكوت عن الحق، ولا الخنوع للباطل والظلم، ومورد استخدامها هو مع الأنداد والضعفاء، وليس أمام المعتدين الأقوياء، والعفو إنما يصدق عند القدرة على أخذ الحق.

استضعاف المرأة

المرأة شقيقة الرجل، وشريكته في الحياة من بدايتها، ولا يستغني عنها كما لا تستغني عنه، فوجود أحدهما يعتمد على وجود الآخر، لأن التكاثر واستمرار النسل البشري يحتاج إلى كليهما، وإدارة شؤون الحياة وقضايا العيش لا تنتظم دون تكاملهما.

لكن حكمة الحياة اقتضت أن تظهر في الرجل حالة القوة والخشونة، وأن تتجلى في المرأة حالة العطف والحنان، هذا العطف والحنان الذي يحتاج إليه الرجل حين يكون جنيناً في أحشاء المرأة، ورضيعاً على صدرها، ووليداً في حجرها، وزوجاً تبذل له حبها.

وكان يجب أن يقدّر الرجل دائماً للمرأة هذا الدور العظيم، لكنه بدلاً من ذلك غالباً ما يستضعفها، ويستغل طبيعتها اللينة الطيبة، ويتعامل معها من موقع قوة مهيمنة، حدث ذلك في ماضي الزمان ولا زال مستمراً إلى حاضره،

فقد كانت إنسانية المرأة يوماً ما محل نقاش وجدال، بين الفلاسفة الرجال: هل أنها روح أم لا؟ وهل روحها إنسانية أم لا؟ وعلى فرض إنسانيتها هل هي كالرجل؟ وهل خلقت لذاتها أم لخدمة الرجل وإمتاعه؟

وكان يتعامل معها في بعض الأزمان الغابرة كرقيق يباع ويُشرى، أو كسلعة تقتنى وتمتلك، ويُنظر إليها كمصدر للشرور والخطيئات، وفي بعض الأحيان كان يُستكثر عليها الحق في الحياة والوجود، فتوأد وتدفن حيّة، كما يُنقل ذلك عن عرب الجاهلية مثلاً، وأشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ .[1]

في ظل الإسلام:

ومع أن الإسلام أعاد للمرأة اعتبارها، وأقر لها بدورها المميّز، وشأنها العظيم، وحرّم أي تنكر أو تجاهل لحقوقها ومكانتها، وأعلن على لسان النبي محمد ﷺ أن الجنة على عظمتها وخطرها هي تحت قدم المرأة الأم فقد روى أنس عنه ﷺ أنه قال: «الجنة تحت أقدام الأمهات»[2]

(1) سورة النحل الآية 59 ـ 58.
(2) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم 45439.

وفي حديث آخر عنه ﷺ «الزمها فإن عند رجليها الجنة»[1].

وعاشت المرأة في ظل الإسلام واقع العزة والكرامة، لكن ذلك لم يدم طويلاً، حيث عادت رواسب الجاهلية وبقايا آثارها إلى الظهور، وصار يُنظر إلى المرأة نظرة دونية، وكأنها إنسان من الدرجة الثانية، وتعرضت حقوقها للامتهان والانتهاك، وأسوأ ما في الأمر هو تبرير وتسويغ ذلك الظلم والعدوان من الناحية الدينية الشرعية، باختلاق نصوص موضوعة على لسان الشرع تارة، وبتحريف مقصد بعض النصوص تارة أخرى. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾[2].

المرأة المعاصرة:

رغم أن المرأة المعاصرة قد حققت تقدماً جيداً في اكتساب بعض حقوقها، في العديد من المجتمعات، وأصبحت تشارك في ميادين السياسة والاقتصاد والعلم، إلا أنها من ناحية أخرى تعيش معاناة الاستغلال لأنوثتها، والتسليع لجمالها، وعادت في ظل الحضارة المادية فريسة

---

(1) المصدر السابق، حديث رقم 11760.
(2) سورة الأنعام الآية 93.

سهلة لشهوات الرجل، وأداة لإمتاعه ولذته، تقام لها أسواق النخاسة تحت عنوان انتخاب ملكات الجمال، وتُدفع إلى التعري واستعراض المفاتن باسم التحرر، وتبتذل صورها الفاضحة كأدوات دعاية وإعلان للجذب والاستقطاب، وتدفع هي ثمن كل ذلك بإهدار إنسانيتها وكرامتها، ونزعات الأمومة العميقة لديها، وتصبح عرضة للاغتصاب والابتزاز والاستغلال.

أفادت دراسة أوروبية نشرت في (ستراسبورغ) بمناسبة اليوم العالمي للمرأة سنة 1999م: أن امرأة من كل خمس نساء تقع ضحية أعمال عنف مرتبطة بجنسها في دول مجلس أوروبا. وحسب الدراسة التي أجراها مجلس أوروبا فإن العنف يطاول النساء من كل الأعمار، وكل الطبقات، وكل الثقافات. وقالت (إيفيت رودي) رئيسة اللجنة التابعة للجمعية البرلمانية لدول أوروبا: في وقت وصلنا فيه إلى فجر الألفية الثالثة ترجعنا أعمال العنف هذه إلى العصر الحجري[1].

وفي مؤتمر عقد في مدينة الإسكندرية بمصر بعنوان: واقع المرأة المصرية، نظمته الجمعية المصرية لتنظيم الأسرة بالتعاون مع وكالة التنمية الدولية، وتحدثت فيه الدكتورة عايدة سيف الله عن العنف ضد المرأة، فقالت: إن الإحصاءات

---

(1) الحياة: جريدة يومية، لندن 6مارس 1999م.

تؤكد أن ثلثي النساء في مصر يتعرضن للضرب من الأزواج، وأن 30٪ من العاملات يتعرضن لتحرش جنسي[1].

وكشفت اللجنة العدلية التابعة لمجلس الاتحاد الأوروبي في ستراسبورغ أنها بصدد إعداد مسودة قانون خاص بمكافحة تجارة واسترقاق النساء في بلدان الاتحاد الأوروبي، حيث يشير تقرير الاتحاد الأوروبي بالأرقام إلى أن حوالي نصف مليون امرأة تم استرقاقها وإجبارها على ممارسة الدعارة في بلدان أوروبا الغربية عام 1995م. وكانت شرطة الإجرام الألمانية كشفت في تقريرها السنوي عام 1995م حول تجارة العبيد واستعباد القاصرات في الدعارة عن ازدهار مذهل لهذا العمل الإجرامي الجديد. وقدرت الناطقة الرسمية باسم الشرطة عدد النساء العاملات قسراً في الدعارة في ولاية شمال الراين ويستغاليا وحدها بـ 10 آلاف امرأة تشكل النسوة القادمات من أوروبا الشرقية حوالي 90٪ منهن[2].

وفي أمريكا تشير الإحصاءات إلى أن هناك نحو 2,1 مليون امرأة يقعن في براثن المغتصبين سنوياً في الولايات المتحدة الأمريكية، أما عدد وقائع الاغتصاب فترتفع إلى 5,9 ملايين محاولة تمر بها النساء الأمريكيات خلال العام الواحد،

---

(1) الحياة: جريدة يومية، لندن 8 مايو 1999م.
(2) الشرق الأوسط: جريدة يومية، لندن 28/ 4/ 1997م.

وتؤكد الأرقام الأمريكية أيضاً أن واحدة من كل ست نساء مررن بتجربة اغتصاب، كما أن نحو ستة ملايين امرأة أمريكية يتعرضن لمحاولة التحرش الجنسي سنوياً[1].

في المجتمعات الإسلامية:

يترنح وضع المرأة في مجتمعاتنا الإسلامية بين واقعين سيئين: واقع الانجراف خلف النموذج الغربي للمرأة في بعده السلبي، حيث الابتذال والسفور، واستعراض المفاتن، واللهث وراء موضات الإثارة والاستهلاك، على حساب عفة المرأة وكرامتها، وعلى حساب دورها الإنساني الخطير.

وهناك واقع التخلف والجمود، الذي يشلّ حركة المرأة، ويحجّم دورها، ويصادر الكثير من حقوقها المشروعة، بحجة الحفاظ على العفة والحجاب، وبمبررات زائفة تنسب إلى الدين.

ينقل الشيخ محمد الغزالي عن خطيب مشهور وقف يصيح بأسى وغضب قائلاً: رحم الله أياماً كانت المرأة فيها لا تخرج إلا ثلاث مرات: من بطن أمها إلى العالم، ومن بيت أبيها إلى الزوج، ومن بيت زوجها إلى القبر![2].

---

(1) لها: مجلة أسبوعية ، لندن ص44 عدد 51 بتاريخ 12/ 9/ 2001م.
(2) أبو شقة: عبد الحليم، تحرير المرأة في عصر الرسالة ج1 ص5.

ويقول الشيخ يوسف القرضاوي: كنت أقرأ في كتاب (محاضرات الأدباء) للراغب الأصفهاني، فوجدته عقد فصلاً عن البنات بعنوان (فائدة موتها وتمنيه) ابتداه بقوله: قال رسول الله ﷺ: «نعم الختن القبر» وقال: «دفن البنات من المكرمات» والحديثان من الأحاديث الموضوعة المختلقة على رسول الإسلام[1].

ولا يزال هناك من يرى: أن أفضل شيء للمرأة أن لا ترى الرجل ولا الرجل يراها، استناداً إلى حديث غير معتمد نقل عن السيدة الزهراء عليها السلام.

وأن الأُمية مستحبة للمرأة لورود النهي عن تعليمها الكتابة.

وأنه لا يجوز لها أن تشارك في الانتخابات بأن تنتخب أو تُنتخب، ولا أن تقود وسائل المواصلات الحديثة، وأن صوتها عورة لا تُسمعه الرجل الأجنبي إلا لضرورة، إلى غير ذلك من الآراء التي لا تصمد أمام البحث العلمي الصحيح، وتنفّر المرأة من الإسلام، وتشرّع للتمييز ضدها.

وعلى الصعيد العملي يجري استغلال الكثير من الأحكام الشرعية من قبل بعض الرجال على حساب كرامة المرأة

---

(1) المصدر السابق ص13.

وحقوقها الإنسانية، فبناء على ما يراه كثير من الفقهاء من ثبوت ولاية الأب والجد على الفتاة البكر في مسألة زواجها، واشتراط إذنه وموافقته، فإن بعض الآباء يسيؤون استخدام هذا الحق بشكل يؤدي إلى عضل زواج البنت، ومنعها من الخاطب الكفو الذي ترغب فيه، وذلك حرام من الناحية الشرعية، حيث تسقط ولاية الولي حينما يمارس الإعضال بحقها.

وبعض الأزواج يسيؤون التعامل مع زوجاتهم استغلالاً لمبدأ قوامة الزوج، والحال أن قوامة الزوج على زوجته هي في إطار المعروف ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1] ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.[2]

وبعضهم يستغل حق الطلاق والذي جعله الشارع بيده، لإذلال المرأة وابتزازها، وإبقائها معلقة، أو تخضع له، بإعطائه أي مبلغ يريده، مع أنه لا ضرر ولا ضرار في الإسلام، ومع تخويل الإسلام لحاكم الشرع أن يستخدم صلاحيته في رفع الضرر وتطليق المرأة، ضمن حيثيات نص عليها الفقهاء.

أمام هذين الواقعين، التقليد للنموذج الغربي، وأسر حالة

(1) سورة النساء الآية 19.
(2) سورة البقرة الآية 229.

التخلف، تواجه المرأة امتحاناً صعباً لوعيها وإرادتها.

فكيف تكتشف طريق الخلاص؟ وكيف تهتدي إلى الخيار الصحيح؟

إن العودة إلى مفاهيم الإسلام الصحيحة، وتشريعاته الهادية، وتعاليمه القيمة، هو سبيل المرأة لتحرير ذاتها، وتحصيل حقوقها الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾.[1]

(1) سورة البقرة الآية 120.

بين رؤية الإسلام وواقع المسلمين

كيف تعالج المرأة في مجتمعاتنا هذا التناقض والتباين، بين ما تسمعه عن الإسلام من إنصاف للمرأة، وإقرار لحقوقها، وبين ما تعيشه في الواقع الاجتماعي المعنون بالإسلام من تجاهل وتهميش وظلم؟

إن ذلك يتطلب من المرأة أن تنفتح على الإسلام مباشرة، بقراءته في مصادره وينابيعه الرئيسية الصافية، المتمثلة في القرآن الكريم، والسنة المطهرة الشريفة، وفي حياة المسلمين الأوائل، وأن تتجاوز حجب التفسيرات والإضافات والتراكمات، التي حصلت في عصور التخلف المتأخرة، من تاريخ الفكر والفقه الإسلامي.

لقد سررت جداً، حينما قرأت في إحدى المجلات: أن امرأة مسلمة معاصرة، أنهت كتابة تفسير كامل للقرآن الكريم، وطبعته تحت عنوان (المبصر بنور القرآن) في عشرة مجلدات، يضم كل واحد منها تفسير ثلاثة أجزاء من كتاب الله عز

وجل، هي نائلة هاشم صبري من فلسطين، والتي أشارت إلى أن هناك من حاول تثبيطها وثني عزيمتها عن الاستمرار في كتابة التفسير، إلاّ أن صدور الأجزاء الأولى منه أثبت لهم جدارتها ونجاحها في تقديم عمل جيد متميّز[1].

ولعل سبب تثبيطهم لها في البداية استكثارهم عليها كامرأة أن تقوم بهذه المهمة التي طالما احتكرها الرجال.

للأسف فإني لم أطلع بعد على هذا التفسير، لكني مسرور لهذا التوجه الجميل، بانفتاح المرأة على المصدر الأساس لدين الله، وأتمنى حصول حركة فكرية فقهية أصيلة في أوساط بنات الإسلام، ليقمن بدورهن في تجلية مفاهيم الدين، ونشر تعاليمه وأحكامه، بلغة عصرية حديثة، وبمنهجية علمية واقعية. إننا في انتظار المرأة الفقيهة التي تكتب دورة كاملة في الفقه الإسلامي.

إن انفتاح المرأة على الدين في منابعه النقية، سيكشف لها عمق الظلم الذي مورس بحقها باسم الدين، وهو ظلم للدين نفسه أيضاً، وسيوضح أمامها مدى عظمة الإسلام وإنسانيته، وتقديره لمكانة المرأة ودورها في الحياة.

---

(1) الأسرة: مجلة شهرية، الكويت عدد 85 ربيع الآخر 1421هـ.

تفعيل برامج الإسلام

بيد أن إدراك المرأة لمفاهيم الإسلام وأحكامه، ووعيها بحقوقها ضمن تشريعاته وتعاليمه، ما هي إلا خطوة أولى، والتي يجب أن ترافقها خطوة أخرى، باتجاه تفعيل هذه البرامج الإسلامية عملياً، وتغيير واقع المرأة الاجتماعي على ضوئها.

وذلك يقتضي أن تتوفر المرأة المسلمة على الثقة بذاتها، وأن تتحلى بالجرأة والإقدام للمطالبة بحقوقها، في إطار تعاليم الإسلام وآدابه.

ربما يرفض أكثر الرجال تشجيع المرأة على الثقة بالذات والمطالبة بالحقوق، ويرون ذلك بمثابة دعوة لها إلى التمرد، وتخريباً لطبيعة شخصيتها الناعمة اللينة.

بيد أن القضية أخطر وأعمق من ذلك بكثير، إنها ترتبط بتحد صارخ تواجهه مجتمعاتنا أمام النموذج الغربي، والذي

يُسوّق كمشروع إنقاذ للمرأة، ويستقطبها باعتباره الطريق إلى تحرير شخصيتها، وإعزاز موقعيتها في الحياة.

فإذا وجدت المرأة نفسها أمام خيارين: السكوت على واقع التخلف والتهميش الذي تعيشه، أو الاستجابة لدعوات التحرر والانطلاق، وفق ما يطرحه النموذج الغربي، فإن هذا الخيار الثاني سيكون الأقدر على الجذب والاستقطاب.

والأهم من ذلك مسؤوليتنا الشرعية في صدق الالتزام بمبادئ الإسلام وتعاليمه، كما يريدها الله تعالى، لا أن نحوّرها ونكيفها وفق مصلحة هذه الشريحة على حساب شريحة أخرى.

فلا يصح للرجال أن يدافعوا عن واقع خاطئ، وأن يكتموا أحكام الشرع ويستروها، من أجل أن يكونوا في موقع أقوى تجاه المرأة.

علينا أن نستنطق الإسلام نفسه، لنرى موقعية المرأة ضمن مشروعه الاجتماعي، والمدى الذي يتيحه لها من أجل الدفاع عن مصالحها، ونيل حقوقها.

وعلى هدي النصوص الدينية، ووقائع العصر النبوي، وسيرة قادة الأمة في العهد الإسلامي الأول، يمكننا أن نتبين رؤية الإسلام وتوجيهه في هذا المجال، هل يفضّل للمرأة أن تسكت على واقعها إذا كان متخلفاً، وأن تخضع للوضع

المعاش على حساب كرامتها وحقوقها؟ أم يفسح لها مجال الطموح للتغيير، ويشجعها على التطلع لتحقيق مصالحها المادية والمعنوية؟

أمامنا في هذا البحث بعض النصوص والوقائع التي يمكن الاستضاءة بها في معالجة الموضوع.

المجادلة: مطالبة بتشريع

فطرة الإنسان، وثقته بعدالة الشارع، وكمال التشريع الإلهي، تدفعه للبحث عن الحل والعلاج، لأي معضلة تواجهه، أو محنة يتعرض لها في حياته الاجتماعية.

فإذا ما وجد فراغاً تشريعياً في قضية من القضايا، عليه أن يعود إلى مصادر التشريع جاداً مجتهداً، للحصول على الحكم المطلوب لملء ذلك الفراغ، ومعالجة ذلك المعضل.

يتحدث القرآن الكريم عن امرأة واجهت هذا التحدي في بدء تكوين المجتمع الإسلامي، حيث كانت لا تزال بعض الأعراف والتقاليد الجاهلية حاكمة سائدة، لأن التشريع كان يتكامل تدريجياً.

رأت هذه المرأة أن الحكم السائد في القضية التي واجهتها يضر بمصلحتها، ويهدد مستقبلها ومستقبل عائلتها بالضياع والدمار، فلم تسكت على ذلك، ولم تقبل الخضوع

لعرف وتقليد يلحق بها الظلم والأذى، فانطلقت نحو جهة التشريع، النبي محمد ﷺ، تعلن معارضتها ورفضها القبول بالعرف السائد، وتطالبه بتشريع عادل يعالج مشكلتها وأمثالها بواقعية وإنصاف، وحينما اعتذر لها النبي ﷺ بأنه بعد لم ينزل عليه وحي حول الموضع، لم يقنعها ذلك، ودخلت معه في نقاش وجدال، تلحّ وتضغط لجهة الإسراع في وضع حل صحيح.

لم ينهرها النبي ﷺ، ولم يغضب من جدالها وإصرارها، ولا استنكر عليها المطالبة والشكوى لحماية مصالحها، بل إن الله تعالى أشاد بموقفها وخلّده بأن جعله عنواناً لسورة كاملة في القرآن الكريم، تبدأ بالحديث عن المشكلة التي طرحتها تلك المرأة، وتضع التشريع الإلهي لمعالجتها، وهي السورة رقم 58 واسمها سورة (المجادِلة) بفتح الدال إشارة إلى حادثة الجدال، أو بكسرها وهي القراءة المعروفة إشارة إلى المرأة صاحبة الموقف.

تبدأ السورة بقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.[1]

---

(1) سورة المجادلة الآية 1.

قال أكثر المفسرين: إن تلك المرأة صحابية من الأنصار اسمها (خولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية) وزوجها أوس بن الصامت، وكان شيخاً كبيراً، قد ساء خلقه، فدخل عليها يوماً، فراجعته بشيء، فغضب، فقال: أنت عليّ كظهر أمي، وكان الرجل في الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه، ويسمى ظهاراً، ولأنه أول حادث من نوعه في المجتمع الإسلامي، ولم يكن قد نزل حوله تشريع، فإن الحكم السابق يبقى ساري المفعول في عرف المجتمع.

ورغم أن الزوج قد تراجع عن كلامه، لكن التراجع لا يجدي وقد انتهت إلى الأبد العلاقة الزوجية بينه وبين زوجته.

فأتت الزوجة (خولة) رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب فيّ، فلما خلا سنّي، ونثرت بطني -أي كثر ولدي- جعلني عليه كأمه، وتركني إلى غير أحد، فإن كنت تجد لي رخصة يا رسول الله، تنعشني بها وإياه فحدثني بها؟

قال ﷺ «والله ما أمرت في شأنك بشيء حتى الآن».

وفي رواية: ما أراك إلا قد حرمت عليه.

قالت: ما ذكر طلاقاً. وجادلت رسول الله ﷺ مراراً ثم قالت: اللهم إني أشكو إليك شدة وحدتي، وما يشق علي من فراقه.

وفي رواية قالت: أشكو إلى الله تعالى فاقتي، وشدة حالي، وإن لي صبية صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا!.

وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إني أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك. وما برحت حتى نزل القرآن فيها. فقال ﷺ: «يا خولة ابشري. قالت: خيراً؟ فقرأ ﷺ عليها أوائل آيات سورة المجادلة، والتي تتضمن تشريعاً جديداً، يتيح للزوج التراجع عن تحريم زوجته عليه بتشبيهه لها بأمه، شريطة أن يقوم بالتكفير عن ذلك، بعتق إنسان مستعبد، فإن لم يستطع يصوم شهرين متتابعين، فإن لم يكن قادراً يطعم ستين مسكينا. وعند ذلك يستعيد علاقته الزوجية. يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ. فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [1].

أصبحت هذه المرأة الجريئة التي طالبت بتشريع يحمي حقوقها ومصالحها، ذات موقعية واحترام في وسط المسلمين، بعد أن خلّد موقفها الذكر الحكيم.

ينقل السيد الآلوسي في تفسيره أنه (كان عمر ﷺ يكرمها

---

(1) سورة المجادلة الآية 3 ـ 4.

إذا دخلت عليه، ويقول: قد سمع الله تعالى لها، وروى ابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات أنها لقيته ؟، وهو يسير مع الناس، فاستوقفته فوقف لها، ودنا منها، وأصغى إليها، ووضع يده على منكبيها، حتى قضت حاجتها وانصرفت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين حبست رجال قريش على هذه العجوز؟ قال: ويحك أتدري من هذه؟ قال: لا، قال: هذه امرأة سمع الله تعالى شكواها من فوق سبع سموات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف حتى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها. وفي رواية للبخاري في تاريخه: أنها قالت: قف يا عمر. فوقف فأغلظت له القول. فقال رجل: يا أمير المؤمنين ما رأيت كاليوم! فقال: وما يمنعني أن استمع إليها وهي التي استمع الله تعالى لها فأنزل فيها ما أنزل[1].

وجميل ما قاله الشيخ ابن عاشور عند تفسيره لسورة المجادلة: (افتتحت آيات أحكام الظهار بذكر سبب نزولها، تنويهاً بالمرأة التي وجَّهت شكواها إلى الله تعالى، بأنها لم تقصّر في طلب العدل في حقها وحق بنيها. ولم ترض بعُنجهية زوجها وابتداره إلى ما ينثر عقد عائلته دون تبصّر ولا

---

(1) الآلوسي البغدادي: السيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن ج28 ص3، الطبعة الرابعة 1985م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

روية، وتعليماً لنساء الأمة الإسلامية ورجالها واجب الذوذ عن مصالحها.[1]

يطالبن بحقهن في التعلم:

فرص العلم والمعرفة في مختلف مستوياتها، يجب أن تتاح للنساء كما للرجال على حد سواء، وإذا ما لاحظت المرأة نقصاً أو غبناً لها في هذا المجال، فعليها أن لا تسكت على ذلك، بل تطالب بحقها في كسب المعرفة والعلم. وهذا ما حدث في عهد رسول الله ﷺ، وأقر لهن بمشروعية طلبهن، واستجاب لرغبتهن.

جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري: قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك. فوعدهن يوماً لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن[2]

الحق في اختيار الزوج:

حينما يسيء الأب استخدام صلاحية ولايته على ابنته، فيمنعها من الزواج من كفو ترغب الاقتران به، ويعضل

---

(1) ابن عاشور: الشيخ محمد الطاهر، التحرير والتنوير ج28 ص 6 الطبعة الأولى 2000م، مؤسسة التاريخ ـ بيروت.

(2) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم 101/ كتاب العلم.

زواجها، فإن الشرع يسقط ولاية الأب حينئذٍ. وكذلك لو فرض الأب على البنت زوجاً لا تريده هي، فإن بإمكانها رفضه، وخاصة إذا كان غير كفو لها.

وتنقل مصادر الحديث النبوي: أن فتاة زوجها أبوها من ابن عمها وهي كارهة، فانطلقت تعلن رفضها عند رسول الله ﷺ، متمسكة بحقها في اختيار شريك الحياة، فأقرّ الرسول ﷺ طلبها، وأعطاها الحق في إمضاء الزواج أو إبطاله، وحين حصل الإقرار بحقها، وافقت على إمضاء الزواج، وأعلنت أن هدفها من الرفض إثبات حق المرأة في الاختيار.

جاء في سنن النسائي عن عائشة: أن فتاة دخلت عليها فقالت: إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته، وأنا كارهة. قالت: اجلسي حتى يأتي النبي ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ فأخبرته. فأرسل إلى أبيها فدعاه، فجعل الأمر إليها، فقالت: يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبي، ولكن أردت أن أعلم أَلِلنساء من الأمر شيء؟[1]

تدافع عن حقوقها الاقتصادية:

حينما تصدر أي جهة قيادية في المجتمع قراراً ينال من مصالح المرأة المادية، أو يمسّ بشيء من حقوقها الاقتصادية،

---

(1) النسائي: أحمد بن شعيب، سنن النسائي، كتاب النكاح.

التي أثبتها لها الإسلام، فإن عليها أن تحتج وتعترض على ذلك، انتصاراً لحقها، ودفاعاً عن أحكام الشرع.

هكذا يحدثنا التاريخ الإسلامي عن امرأة مسلمة أعلنت معارضتها لقرار أصدره الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، لتحديد مهور النساء، فتراجع أمام اعتراضها، وسحب قراره، معترفاً بخطئه في ذلك.

نقل ابن تيمية في كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)[1] والزحيلي في (التفسير المنير) أنه: خطب عمر؟ فقال: ألا لا تغالوا في صدقات النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله، لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ، ما أصدق قط امرأة من نسائه ولا بناته فوق اثنتي عشرة أوقية. فقامت إليه امرأة فقالت: يا عمر، يعطينا الله وتحرمنا؟ أليس الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾؟

فقال عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر. وفي رواية: فأطرق عمر ثم قال: كل الناس أفقه منك يا عمر! وفي أخرى: امرأة أصابت ورجل أخطأ. وترك الإنكار[2]

---

(1) ابن تيمية: أحمد الحراني، رفع الملام، ص27، الطبعة الخامسة 1396هـ، الجامعة الإسلامية، المدينة.

(2) الزحيلي: الدكتور وهبة، التفسير المنير، ص 306 ج 4، الطبعة الأولى 1991م.

حق الانفصال عن الزوج:

صحيح أن الإسلام قد جعل الطلاق وإنهاء العلاقة الزوجية بيد الرجل دون المرأة، لكن الزوج إذا قصّر في القيام بواجبه تجاه زوجته، أو كان مسيئاً لها فلا يفرض عليها الإسلام أن تعيش الجحيم معه، أو تخضع لإذلاله وابتزازه، ولا يرضى الإسلام أن تصبح معلّقة، لا تتمتع بحقوقها الزوجية، ولا تشعر باستقلاليتها.

لذلك جعل من حقها أن ترفع أمرها إلى الحاكم الشرعي، والذي يلزم زوجها بالقيام بوظائفه تجاهها كزوج، أو يطلق سراحها، فإذا لم يستجب الزوج، ورغبت المرأة في الانفصال، طلقها الحاكم الشرعي رغماً عنه.

يقول الفقهاء: (إذا امتنع الزوج عن الإنفاق مع قدرته عليه فرفعت الزوجة أمرها إلى الحاكم الشرعي، أبلغه الحاكم بلزوم أحد الأمرين عليه، إما الإنفاق أو الطلاق، فإن امتنع عن الأمرين ولم يمكن الإنفاق عليها من ماله -ولو ببيع عقاره إذا توقف عليه- ولا إجباره على الطلاق جاز للحاكم أن يطلقها بطلبها، وإذا كان الزوج غير قادر على الإنفاق على زوجته وجب عليه طلاقها إذا لم ترض بالصبر معه، فإذا لم يفعل جاز لها أن ترفع أمرها إلى الحاكم الشرعي فيأمر الزوج بالطلاق، فإن امتنع وتعذر إجباره عليه طلّقها الحاكم.

- إذا هجر زوجته هجراً كلياً فصارت كالمعلّقة لا هي ذات زوج ولا هي مطلقة، جاز لها رفع أمرها إلى الحاكم الشرعي، فيُلزم الزوج بأحد الأمرين: إما العدول عن هجرها وجعلها كالمعلّقة، أو تسريحها لتتمكن من الزواج من رجل آخر، فإذا امتنع منهما جاز للحاكم - بعد استنفاد كل الوسائل المشروعة لإجباره حتى الحبس لو أمكنه - أن يطلّقها بطلبها ذلك. ويقع الطلاق بائناً أو رجعياً حسب اختلاف الموارد، ولا فرق فيما ذكر بين بذل الزوج نفقتها وعدمه.

- إذا كان الزوج يؤذي زوجته ويشاكسها بغير وجه شرعي، جاز لها رفع أمرها إلى الحاكم الشرعي ليمنعه من الإيذاء والظلم ويُلزمه بالمعاشرة معها بالمعروف، فإن نفع وإلاّ عزّره بما يراه، فإن لم ينفع أيضاً كان لها المطالبة بالطلاق، فإن امتنع منه ولم يمكن إجباره عليه طلّقها الحاكم الشرعي[3].

تلك كانت بعض النماذج والأمثلة من اهتمام الإسلام بواقع المرأة، وحرصه على حفظ كرامتها ومكانتها، ووضعه للبرامج والتشريعات التي تتيح لها المطالبة بحقوقها، والدفاع عن مصالحها.

---

(3) السيستاني: السيد علي الحسيني، منهاج الصالحين، المعاملات2، كتاب النكاح، مسألة رقم360 ـ 358 ـ 356.

الأمومة وظيفة أرقى

في السنوات الأولى من عمر الإنسان تتشكل ملامح شخصيته، وتنغرس بذور صفاتها الأساسية، لذلك يسميها خبراء التربية بالسنوات التأسيسية، وفي تلك السنوات لا أحد أقرب إلى الطفل وأشد التصاقاً به من الأم، وبذلك تكون هي الجهة الأكثر تأثيراً في تشكيل شخصيته و صناعتها.

ويتيح لها الارتباط العضوي والنفسي بينها وبين الطفل أكبر فرصة للتأثير، فهو في الأساس جزء منها، تكّون في أحشائها، وتغذّى من دمها، ثم ينشأ في حضنها، وينمو جسمه من لبنها، فمن الطبيعي أن تتعلق به، وأن ينشدّ إليها، هذه العلقة الخاصة، والانشداد الوثيق، هي التي تجعل بيد الأم أدوات الرسم والتشكيل لشخصية الولد.

ولا تستطيع أي جهة أخرى أن تأخذ نفس مكانة الأم وتأثيرها، حتى وإن مارست وظائف الأم العملية، كالإرضاع والحضانة، لأنها لا تملك آليات التفاعل والارتباط النفسي

والعاطفي الموجود لدى الأم، بل يمكن القول إن هناك برمجة غريزية، أودعها الخالق جلّ وعلا للاستجابة والتفاعل بين الأم ووليدها، ليس في عالم الإنسان فقط، بل في عوالم سائر الحيوانات أيضاً، فحتى عند الثدييات الدنيا مثلاً يبدأ التعلق مباشرة بعد الولادة، فالصغير يتعرف على أمه ويبقى إلى جانبها دون غيرها، والأم بدورها ترعى وتغذي وتحمي وليدها دون غيره.

لقد حاولت بعض النظريات في مجالات التربية وعلم النفس، أن تقصر تفسير ظاهرة التعلق والانشداد، بين الطفل والأم، على أساس تلبية الأم للحاجات البيولوجية للطفل، حيث توفرله متطلباته الأساسية. لكن هذه النظريات لم تصمد أمام النقد العلمي، والملاحظة التجريبية، ويرى ((بولبي)) ومجموعة من العلماء المتخصصين: أن هذه النظريات ليست مقنعة في تفسيرها لظاهرة التعلّق عند الإنسان، ويستند ((بولبي)) إلى نتائج البحوث والدراسات، التي تبين أن التعلق يمكن أن ينمو ويتطور تجاه أفراد غير معنيين بالعناية الجسدية للطفل وتطور العلاقة بين الأم والطفل يتجاوز تلبية الحاجات البيولوجية، ويعتمد إلى حد كبير على طبيعة التفاعل بين الجانبين، فإرضاء حاجات الطفل الأساسية عملية ضرورية، ولكنها غير كافية لنمو التعلق بين الأم والطفل، وغالباً مايكون

إرضاء هذه الحاجات فرصة للتفاعل المتبادل بكل أشكاله. فعندما ترضع الأم طفلها، تشعره بحرارة جسدها، و بحنو لمساتها، وبرقة عباراتها ومناغاتها، ويظهر الطفل بدوره علامات الرضى و الارتياح، مما يشجعها على الاستمرار في التفاعل معه.[1]

---

(1) قنطار: الدكتور فايز، الأمومة نمو العلاقة بين الطفل والأم، ص37 ـ 41، عالم المعرفة، 166 ،الكويت.

الإشباع العاطفي

أصبح من الواضح علمياً كما هو ملحوظ وجدانياً، مدى حاجة الطفل إلى الحنان والعطف الذي تفيضه عليه الأم، بشكل خاص، والذي لا يعوضّ عنه أي بديل، وإن توفير الاحتياجات الجسدية للطفل، لايمكن أن يغنيه عن حب أمه وحنانها،ذلك الحب والحنان المميّز الذي لا يصطنع ولا يستبدل.

حتى أن أبحاثاً علمية حديثة تشير إلى خطأ دارج من قبل المستشفيات التي يتم فيها التوليد بإشراف طبي، حيث يفصل الصغير عن الأم مباشرة بعد الولادة، لأسباب العناية الصحية، لكن نتائج هذه الأبحاث تخلص إلى القول: بوجوب وضع الوليد على تماس حسّي مع الأم بعد الولادة مباشرة، وذلك لأهمية هذه اللحظات في العلاقات اللاحقة بين الطفل والأم، وأهمية توفير الفرصة للأم لرؤية الطفل وملامسته بعد الولادة مباشرة، فهي في أشد الحاجة لتحسه وتتلمسه وتشمه، لذا

يجب المزيد من الحذر قبل التفكير بفصل الطفل عن الأم بعد الولادة مباشرة[1]

إن الطفل يحتاج إلى الغذاء، ويمكن توفير حاجته الغذائية من أي مصدر، لكن أي تغذية للطفل، لا يمكن أن تكون بمستوى لبن الأم، لا من حيث القيمة الغذائية فقط، بل لما يوفره من فرصة للإشباع العاطفي، ولإفاضة الحنان والحب على المولود، إضافة إلى ماتشعر به الأم من سعادة وسرور.

لذلك ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليس للصبي لبن خير من لبن أمه»[2] وعن علي عليه السلام: «ما من لبن يرضع به الصبي أعظم بركة عليه من لبن أمه»[3] فحليب الأم تتناسب مركباته وحاجات الطفل خاصة في الأشهر الأولى، فهو قد صمم وركب ليفي بحاجات الطفل يوماً بيوم، ويعتبر رابطة فيزيولوجية محسوسة بين الطفل والأم، وامتداداً لحبل الولادة. وفوق ذلك كله، فإن قطرات حليب الأم التي يجتذبها الطفل، تصحبها دفقات عظيمة من العطف والحنان، تغذي نفسه إلى جانب تغذيته الجسدية.

ونفس الشيء يقال عن الحضانة، فقد يتوفر من يقوم

---

(1) المصدر السابق ص 72.

(2) المجلسي: محمد باقر، بحار الانوار ج 100 ص 323.

(3) الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي، ج 6 ص 40.

بشؤون الطفل غير الأم، لكن لا أحد يوفر له ماتغدقه عليه الأم من حب وشفقة، وعطف وحنان.

لذلك قرر الإسلام أولوية الأم بإرضاع طفلها، وأحقيتها بحضانته في السنوات الأولى من عمره، على خلاف بين المذاهب و الفقهاء في تحديد تلك السنوات.

إن إنفصال الطفل عن الأم، وحرمانه من فيض حبها وعطفها، يحدث آثاراً سلبية عميقة في نفسه، تنعكس على تشكيل شخصيته، و مستقبل سلوكه، وسيرته في الحياة.

وكان العرب حينما تعجبهم متانة شخصية إنسان وقوتها، يصفونه بأنه ((شبعان من حليب أمه)) للتعبير عن ارتواء نفسيته، عطفاً وحناناً في صغره، مما جعله قوي الشخصية والجنان في ما بعد.

وتناقش دراسات تربوية واجتماعية حديثة، تأثير ابتعاد الأم العاملة عن وليدها عند ذهابها للعمل، و خاصة قبل إكمال السنة الأولى، وأن ذلك يعود بآثار سلبية على الأم والطفل، ومن الأفضل أن تمدد إجازة الأمومة إلى سنة كاملة.

وفي تقريره إلى منظمة الصحة العالمية قدم ((بولبي)) براهين عدة، تبيّن أن اضطراب الشخصية والعصاب، تكونان غالباً نتيجة الحرمان من عناية الأم، أو نتيجة لعلاقة متقطعة

زمنياً وغير دائمة بين الطفل والأم، وأن انقطاع العلاقة بينهما يعود بالنتائج السلبية على الطفل[1]

إن فيض حنان الأم يمنح نفس الطفل الأمن والاستقرار، ويغذّي مشاعره بالطمأنينة والاستقامة، ويصلّب شخصيته تجاه ما يستقبله في الحياة من مشاكل وأزمات.

---

(1) قنطار: الدكتور فايز، الأمومة ص 204.

البناء الثقافي والمعرفي

يبدو العالم غريباً على الطفل حينما يتفتق إحساسه، ويبدأ وعيه، وتكون الأم هي أقرب شيء إليه، ينظر إلى ما يحيط به، ويتعامل معه من خلالها، فمنها يتعلم اللغة والكلام، وبواسطتها يتفهم مايدور حوله.

وبإمكان الأم الواعية أن تقوم بدور كبير في تنمية معارف طفلها، وزرع حب المعرفة في نفسه، وتربيته على التفكير، وتقوية مداركه العلمية، عبر التحادث معه، وإثارة اهتماماته، وتشجيعه على الاستفهام والبحث.

إن حالة الفضول والسؤال عن كل شيء، حالة طبيعية، تحصل عند الطفل مبكراً، وفي العوائل المتخلفة، قد تقمع هذه الحالة الإيجابية عند الطفل، ويستثقل الوالدان كثرة تساؤلاته، وقد ينظر إليها باستخفاف، أو يجاب عليها بشكل خاطئ.

بينما يفترض أن يتيح فضول التساؤل عند الطفل فرصة مناسبة لتنمية معارفه، وتشجيع قدراته الذهنية.

والأم صاحبة الدور الأكبر في هذا المجال، ولا يصح أبداً أن تترك عقل ونفس طفلها ساحة مفتوحة أمام برامج التلفزيون، لتتشكل ثقافته ومعارفه وفق توجيهات قد لا تكون منسجمة مع نظام القيم الديني والاجتماعي.

كما لا ينبغي الاستهانة بقدرات الطفل على الفهم والاستيعاب، إن حقائق كثيرة، ومفاهيم مختلفة، يمكن تقديمها للطفل، عبر أساليب التوضيح والتبيين، وبواسطة التكرار والإعادة.

وكثيراً ما يكون نبوغ بعض الأطفال وتفوقهم الدراسي، ناتج عن التشجيع والاهتمام من قبل العائلة بالنمو المعرفي والبناء الثقافي.

التوجيه السلوكي

كما يكتسب الطفل لغة الكلام من المحيط الذي يعيش فيه، كذلك يأخذ سلوكه وأسلوب تعامله وتعاطيه، من خلال ملاحظته وتقليده للقريبين منه، إنه يأتي للحياة صفحة بيضاء فارغة، ثم تبدأ رسوم العادات والتقاليد التي ينشأ في أجوائها، تنعكس وترتسم على صفحة نفسه وسلوكه.

يقول الإمام علي عليه السلام: «إنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته»[1]

ولأن الطفل يتأثر بالأقرب إليه، والأكثر التصاقاً به، فإن الأم هي المؤثر الأكبر في سلوكه في السنوات التأسيسية من عمره، تلك السنوات التي تتحكم في بناء شخصيته المستقبلية.

---

(1) دشتي: محمد/ محمدي: كاظم، المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم.

فالطفل شديد الملاحظة والتأمل في تصرفات أمه وحركاتها، ومن ثم يندفع لمحاكاتها وتقليدها، وتبقى في أعماق نفسه، وخبايا مشاعره، الكثير من الانطباعات عن مشاهداته ومعايشاته لسلوك المحيطين به فترة صغره، وخاصة الأم. هذه الانطباعات قد تصبح له مصدر توجيه وإلهام فيما يواجهه من مواقف وظروف.

وإذا كان بعض العظماء والمفكرين والأدباء، قد تحدثوا عن بعض ما علق بذاكرتهم من فترة طفولتهم، وعن تأثيرات تلك الفترة في تشكيل شخصياتهم، فإنما هم يتحدثون عن ظاهرة عامة، لكل أبناء البشر، وميزة هؤلاء تعبيرهم عن هذه الظاهرة.

انطلاقاً من هذه الحقيقة فإن الأم الواعية، ذات السلوك القويم، والتوجيه التربوي، تصنع شخصيات أبنائها في مستوى رفيع، وبكفائة عالية.

أمهات العظماء

إن دراسة حياة العظماء في نشأتهم، والتأمل في ظروف تربيتهم العائلية، يكشف في غالب الأحيان عن دور الأمهات في صناعة شخصيات هؤلاء العظماء.

لقد تحدث القرآن الكريم عن نبي الله موسى عليه السلام وظروف ولادته ونشأته، في آيات كثيرة، نقرأ فيها حضوراً فاعلاً لأمه، دون أي إشارة أو ذكر لأبيه عمران، مع تأكيد المصادر التاريخية على وجوده عند ولادة موسى عليه السلام، وأن عمره آنذاك كان سبعين سنة، كما في تاريخ الطبري والكامل لابن الأثير[1]

أما نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام، فلم يكن له أب وانفردت أمه برعايته وتربيته، وجاء ذكرها بالتعظيم والتقديس

---

(1) الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الطبري ج 1 ص 271، الطبعة الخامسة 1989م، مؤسسة الاعلمي، بيروت.

في القرآن الكريم، بل خصصت سورة باسمها: سورة مريم.

وينقل عن ((نابليون بونابارت 1769-1821م)) والذي أسس امبراطورية عظيمة شملت معظم أرجاء أوربا، ينقل عنه قوله: ((إن ما توصلت إليه اليوم هو من عند أمي))[1]

وكتب أحد الباحثين: ((تستطيع الأم الفاضلة أن تؤدي مهمة مئة أستاذ من أساتذة المدارس. هذا ما قاله الشاعر الانجليزي جورج هربرت، وهذا ما أثبته التاريخ. فجورج واشنطن أول رئيس للجمهورية في الولايات المتحدة الأمريكية، كان قد فقد أباه وهو في الحادية عشرة من عمره، وما كان ليشبَّ على ماشبَّ عليه من رصانة الخلق، وقوة الشخصية، لو لم تكن امه على جانب كبير من الحكمة والاقتدار، وقد تولت تربيته منفردة بعد وفاة أبيه. ويصدق ذلك كثيراً أو قليلاً على عدد من أعلام الأدب والعلم والشعر عبر التاريخ. نذكر منهم على سبيل المثال: جوته، وجرين، وشيللر، وبيكون، وارسكني. فلو لا تربية امهاتهم لهم لما احتل هؤلاء مكانتهم بين أعلام المبدعين))[2]

إن كل أم ترغب الخير لولدها، وتتمنى أن يكون متقدماً

---

(1) القائمي: الدكتور علي، دور الأم في التربية ص 14، الطبعة الاولى 1994م، دار النبلاء، بيروت

(2) مجلة العربي، الكويت، عدد 95 ص95.

متفوقاً، عليها أن تعلم أن ذلك رهن بحسن تربيتها، وإتقان رعايتها واهتمامها بتوجيهه، وتهذيب سلوكه.

أين دور الأب؟

لا يمكن إنكار دور الأب، ولا تجاهل تأثيره في تربية الأبناء، والحديث عن دور الأم انما هو باعتبارها الأكثر التصاقاً بالولد، خاصة في الفترة الأولى من عمره، والتي يطلق عليها علماء التربية والنفس، أنها السنوات التأسيسية لتشكيل شخصية الإنسان.

لذلك نجد النصوص الدينية تؤكد على مكانة الأم، وحقها الكبير على الإنسان، فأتعابها وتضحياتها تجاه الولد، اثناء الحمل والولادة والحضانة، لا تقاس بأي جهد آخر، حتى جهد الأب.

ورد عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله جعفر الصادق عليه السلام قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يارسول الله من أبرُّ ؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال أمك. قال: ثم من. قال: أباك.[1]

وروى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «الجنة تحت أقدام الأمهات»[2]

---

(1) الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي ج2 ص 159.
(2) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم 45439.

وواضح أن العلاقة بين الطفل والأم خاصة في السنوات الأولى، هي أوثق و أقوى من علاقته مع الأب، بسبب طبيعة دور الأم، لذلك تكون هي الأكثر تأثيراً عليه، وقدرة على صناعة شخصيته.

الوظيفة الأرقى

تقاس أهمية أي وظيفة بعدة مقاييس من أبرزها ما يلي:

1 - أهمية الإنجاز الذي تنتجه الوظيفة.

2 - مدى الجهد المبذول في القيام بها، والكفاءة المؤهلة لذلك.

3 - نسبة توفير البدائل والخيارات لأدائها.

فكلما كان الإنجاز أهم، والجهد المبذول أكبر، والتأهيل المطلوب أرفع، والبدائل أقل، كانت الوظيفة أرقى و أعلى.

على أساس هذه المقاييس فإنه يمكن اعتبار الأمومة أرقى وظيفة في المجتمع البشري، فهي ترتبط بإنتاج الإنسان نفسه، وصنع شخصيته، وذلك إنجاز لا يدانيه أي إنجاز.

أما الجهد الذي تتطلبه مهمة الأمومة من حمل وولادة ورضاعة وحضانة، ففيه درجة قصوى من الخطورة والعناء والمشقة. ويعبرّ القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ

أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[1] وفي آية أخرى ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾[2]

كما أن مؤهلات دور الأمومة صفات نفسية فطرية لا يمكن توفيرها بأي ثمن، إنها الحب الحقيقي، والحنان الصادق، والتّحمل للعناء بكل رضا وسرور.

وعلى صعيد توفير البدائل والخيارات فإن من الواضح وجداناً وتجربة أن لا أحد يملأ مكان الأم، ولا يستطيع تقمّص دورها المتميّز.

فالأمومة هي الوظيفة الأرقى، و الأم التي تحسن أداء هذه الوظيفة، لا يمكن تثمين دورها بأي ثمن، ولا تحديد أجرها بأي مقابل، وكل إنسان مطوّق بفضلها، ومهما عمل وقدم لأمه فلن يستطيع مكافأتها. قال رجل لرسول الله ﷺ: إنّ والدتي بلغها الكبر وهي عندي الآن أحملها على ظهري، وأطعمها من كسبي، وأميط عنها الأذى بيدي، وأصرف عنها مع ذلك وجهي استحياءً منها وإعظاماً لها، فهل كافأتها؟ قال: لا لأن بطنها كان لك وعاء وثديها كان لك سقاء، وقدمها لك حذاء، ويدها لك وقاء، وحجرها لك حواء، وكانت تصنع

---

(1) سورة الأحقاف آية 15.
(2) سورة لقمان آيه 14.

ذلك لك وهي تمنّى حياتك، وأنت تصنع هذابها وتحبّ مماتها.[1]

ومن المؤسف جداً ما تعيشه أغلب المجتمعات في هذا العصر، من إعلاء شأن الاهتمامات المادية والشهوانية، على حساب النوازع الإنسانية النبيلة، حيث ترّوج بعض الأفكار والتصورات التي تقلّل من قيمة دور الأمومة وتستخف به، في مقابل الإشادة بالأعمال الوظيفية الأخرى، التي تُدفع المرأة للقيام بها، واصبحن بعض النساء يشعرن بالهامشية والتخلف والخجل، إذا كان دورهن متركزاً على القيام بمهمة الأمومة، بينما الوظيفة الأخرى مدعاة للفخر والإعتزاز.

إنه لا مانع من عمل المرأة في أي مجال من مجالات الحياة، لكن لا ينبغي أن يكون على حساب دور الأمومة، ولا يصح أبدا أن يستهان بقيمة هذا الدور.

وكما تطالب المنظمات الإنسانية والتربوية، فإنه ينبغي سّن القوانين والتشريعات، التي تمكّن المرأة العاملة من أداء وظيفة الأمومة المقدسة بالشكل المناسب.

إن الضعف والتقصير في أداء مهام الأمومة، ينعكس سلباً

---

(1) مؤسسة البعثه، الطفل نشوؤه وتربيته، ص353، الطبعة الاولى 1410هـ، طهران.

على شخصيات ونفسيات الجيل القادم. فلا بد من تعبئة وتوعية واسعة، تعيد هذه الوظيفة إلى مركز الصدارة في اهتمام إمرأة اليوم.

التربية الصالحة:

إلى جانب إغداق الحنان والعطف، وتقديم الرعاية اللازمة للطفل، يجب أن تهتم الأم بغرس بذور الاستقامة والصلاح في نفسية وليدها، وأن تسعى لإعداده للرقي في مدارج الكمال، إنها بسلوكها وسيرتها تستطيع أن تكون نموذجاً يحرص أبناؤها على الاحتذاء به، ومحاكاته، فاهتمامها بالمعرفة، والتزامها بالخلق القويم، وأداؤها للواجبات الدينية، يخلق في نفوس أبنائها نفس هذه التوجهات، ويدفعهم للأخذ بها.

كما أن محادثة الأم مع الأبناء، وتقديمها النصائح والإرشادات، وشرح حقائق الحياة ومعادلاتها لهم بلغة واضحة رقيقة، يسهم كثيراً في بناء شخصياتهم الواعية الناضجة.

المصادر

1. القرآن الكريم.
2. ابن الاثير: علي بن محمد الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الاولى 1415هـ ـ 1994م.
3. ابن تيمية: أحمد، رفع الملام عن الأئمة الاعلام، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الخامسة 1396هـ.
4. ابن تيمية: تقيي الدين، حقوق آل البيت، دار الكتب العلمية، بيروت.
5. ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار السلام، الرياض ودار الفيحاء، دمشق، الطبعة الاولى 1418هـ ـ 1997م.
6. ابن حنبل: أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الاولى 1419هـ ـ 1998م.
7. ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، مؤسسة التاريخ، بيروت، الطبعة الأولى 1420هـ ـ 2000م.
8. ابن منظور، لسان العرب المحيط، دار الجيل ودار لسان العرب، بيروت، 1408هـ ـ 1988م.

9. ابن هشام: عبد الملك، السيرة النبوية، إعداد مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1415هـ ـ 1994م.
10. أبو شقة: عبد الحليم، تحرير المرأة في عصر الرسالة، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى 1410هـ ـ 1990م.
11. الأسرة: مجلة شهرية، الكويت عدد 85 ربيع الآخر 1421هـ.
12. الآلوسي البغدادي: السيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة 1405هـ ـ 1985م،
13. الآمدي التميمي: عبدالواحد، غرر الحكم ودرر الكلم، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الاولى 1407هـ ـ 1978م.
14. باشميل: محمد أحمد، موسوعة الغزوات الكبرى، أُحد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثامنة 1985م.
15. البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت 1420هـ ـ 1999م.
16. الترمذي: محمد بن عيسى، سنن الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.
17. الحكيم: السيد محسن الطباطبائي، مستمسك العروة الوثقى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1388هـ ـ 1968م.
18. الحياة: جريدة يومية، لندن 8 مايو 1999م.
19. الخوئي: السيد أبو القاسم، معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، مركز نشر اثار الشيعه، قم ـ إيران ، الطبعة الرابعة 1410هـ ـ 1369ش.
20. الخوئي: السيد أبو القاسم، مباني العروة الوثقى، كتاب النكاح، منشورات مدرسة دار العلم.

21. دشتي: محمد/ محمدي: كاظم، المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة، 1406هـ ق ـ 1364هـ ش.

22. الزحيلي: الدكتور وهبة، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، بيروت ـ لبنان دارالفكر، دمشق، سورية، الطبعة الأولى 1411هـ ـ 1991م.

23. السندي: أبو الحسن الحنفي، شرح سنن ابن ماجة القزويني، دار الجيل، بيروت.

24. السيستاني: السيد علي الحسيني، منهاج الصالحين، القسم الثاني المعاملات، كتاب النكاح، نشر مكتب آية الله العظمى السيد السيستاني، قم، الطبعة الاولى 1416هـ.

25. السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، مسند فاطمة الزهراء وما ورد في فضلها، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى 1414هـ ـ 1994م.

26. السيوطي: جلال الدين، سنن النسائي، دار القلم، بيروت ـ لبنان.

27. الشرق الأوسط: جريدة يومية، لندن 28/ 4/ 1997م.

28. شمس الدين: محمد مهدي، الاجتهاد والتقليد، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1419هـ ـ 1998م.

29. شمس الدين: محمد مهدي، أهلية المرأة لتولي السلطة، المؤسسة الدولية لدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الاولى نيسان 1995م.

30. الشيرازي: السيد محمد الحسيني، من فقه الزهراء، الجزء الأول، دار الصادق، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية 1418هـ ـ 1998م.

31. الصحيفة السجادية الكاملة، الطبعة الرابعة 1411هـ ـ 1991م.

32. الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الطبري، مؤسسة الاعلمي، بيروت، الطبعة الخامسة 1989م

33. عاقل: الدكتور فاخر، علم النفس، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة العاشرة 1987م.

34. فلسفي: محمد تقي، الطفل بين الوراثة والتربية، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الثانية 1412هـ ـ 1992م.

35. الفيصل: مجلة ثقافية شهرية، عدد 222 ص 134 مايو 1995م.

36. القائمي: الدكتور علي، دور الأم في التربية، الطبعة الاولى 1994م، دار النبلاء، بيروت

37. القرشي: باقر شريف، حياة الإمام الحسين بن علي، دار البلاغة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الاولى 1418هـ ـ 1993م.

38. قسم الاطفال والناشين لمؤسسة البعثه، الطفل نشوؤه وتربيته، الطبعة الاولى 1410هـ، طهران.

39. القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار المغني، الرياض، الطبعة الاولى 1419هـ ـ 1998م.

40. قنطار: الدكتور فايز، الأمومة نمو العلاقة بين الطفل والأم، عالم المعرفة، 166 ،الكويت.

41. لها: مجلة أسبوعية ، عدد 51 بتاريخ 12/ 9/ 2001م.

42. المامقاني: الشيخ عبد الله، مقباس الهداية في علم الدراية، تحقيق الشيخ محمد رضا المامقاني، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث،بيروت، الطبعة الأولى 1991م.

43. مجلة العربي،الكويت،عدد 95.

44. مجلة العلوم، الترجمة العربية لمجلة العلوم الأمريكية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، المجلد 10 العدد 5 مايو 1994م.

45. مجلة المجلة 2: اسبوعية، لندن عدد 962، يوليو 1998م.

46. المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1983م.

47. المسلمون: جريدة ـ لندن/ عدد (542) 25/ 1/ 1416هـ.

48. معتوق: الدكتور صالح يوسف، جهود المرأة في رواية الحديث القرن الثامن الهجري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى 1418هـ ـ 1997م.

49. الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة اعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية 1419هـ ـ 1999م.

50. الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الاولى 1416هـ ـ 1995م. .

51. الهندي: علاء الدين، كنز العمال في سنن الاقوال والافعال، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الخامسة 1405هـ ـ 1985م.

حسن الصفّار

شخصية المرأة

ونظرت في واقع مجتمعاتنا فهالني ما تعج به مساحة واسعة منها، من ظواهر إجحاف وتجاهل لدور المرأة وحقوقها، ومن قمع وكبت لطاقاتها وقدراتها.

وأسوأ ما في الامر أن يمارس ذلك الاجحاف والظلم تجاه المرأة باسم الدين، حيث تُهمل آيات محكمات من القرآن، ونصوص واضحات من السنة، تؤكد على مكانة المرأة، وشراكتها مع الرجل في الإنسانية، ومستوى العبودية لله تعالى، وفي عمران الارض واستثمار خيرات الطبيعة، وإقامة الحق والعدل، وفي استحقاق ثواب الله ودخول جنته.

يُهمل كل ذلك ليُؤخذ بروايات ونصوص غير ثابتة الصدور، او مشتبهة الدلالة، تبرر تهميش المرأة، والنظر اليها بدونية واحتقار.

وأعرف مسبقاً أن بعض ما تحمله هذه السطور من آراء، قد يكون مورداً للنقاش واختلاف وجهات النظر، لحساسية موضوع المرأة في مجتمعنا، ولتباين الآراء و المواقف تجاهه.

لكن إثارة البحث، وتدوير النقاش، هو أفضل سبيل لإنضاج الرأي، وبلورة الفكر، وإدراك الحق والصواب.

لوحة الغلاف: تفصيل من "ناص

المركز الثقافي العربي
ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت- لبنان
ص.ب 4006 - الدار البيضاء-المغرب